www.daralthaqafa.com

الرجل المجرم

تشيزارى لومبروزو

ترجمه إلى الانجليزية مع مقدمة جديدة

ماري جيبسون نيكول هان رافتر

ترجمه من الإنجليزية إلى العربية

أ. د. حمزة محمد أبو عيسى د. ناجي محمد الوريكات

دار الثقافة للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن

www.daralthaqafa.com

الرجل المجرم

www.daralthaqafa.com

364

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (2022/11/5812)

المؤلـــف: تشيـــــزارى لومبـــــروزو

ترجمـــة: حمزة محمد أبو عيسى - ناجي محمد الوريكات

الكتـــاب: الـرجـــــل المجـــــرم

الواصفات : علم الجريمة - العقوبات - علم الاجتماع الجنائي

لا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أو الناشر

ISBN: 978-9923-51-029-2

الطبعة الأولى 2026م - 1447هـ

جميع الحقوق محفوظة All rights reserved Copyright ©

رتبت كافة التشريعات مسؤولية جزائية على انتهاك حقوق المؤلف وحقوق الناشر وحقوق الملكية الفكرية سواء كان هذا الانتهاك بالاستنساخ أو التصوير أو التخزين أو الترجمة أو التسجيل الصوتي أو المرئي أو تحويل المصنف (الكتاب) إلى صيغة إلكترونية و/أو بأية طريقة أخرى دون الموافقة الخطية للمؤلف والناشر مالكي حقوق الملكية، وتعتبر جميع الأفعال المذكورة أعلاه من الجرائم، وتصل عقوبتها إلى الحبس، ولم تقف التشريعات عند ذلك، بل يترتب على هذه الجرائم مسؤولية مدنية، تتمثل بمطالبة المعتدي بالتعويض عن الضرر المادي والمعنوي.

وعليه نهيب بالجميع الالتزام واحترام قانون حق المؤلف وحقوق الملكية الفكرية تجنباً للمساءلة القانونية وتحت طائلة المسؤولية الجزائية والمدنية والإدارية

الناشر:

دار الثقافة للنشر والتوزيع

أسسها خالد محمود جابر حيف عام 1984 عمان - الأردن

Est. Khaled M. Jaber Haif 1984 Amman - Jordan

عمان - شارع الملكة رانيا العبدالله (شارع الجامعة الأردنية) - مقابل بوابة العلوم للجامعة الأردنية

مجمع محمد عربيات التجاري - رقم 261 - الطابق الأول - هاتف: 5341929 6 (962+) - موبايل: 79 9992616 (962+)

Dar Al-Thaqafa For Publishing & Distributing

Website: www.daralthaqafa.com e-mail: info@daralthaqafa.com

الثقافة للتصميم والإخراج

www.daralthaqafa.com

الرجل المجرم

تشيزارى لومبروزو

ترجمه إلى الانجليزية مع مقدمة جديدة

ماري جيبسون نيكول هان رافتر

ترجمه من الإنجليزية إلى العربية

أ. د. حمزة محمد أبو عيسى د. ناجي محمد الوريكات

دار الثقافة للنشر والتوزيع

2026 م - 1447هـ

www.daralthaqafa.com

هذا الكتاب ترجمة عربية لكتاب

Cesare Lombroso, Criminal Man, translated and with a new introduction by Mary Gibson and Nicole Hahn Rafter, Duke university press: Durham and London, 2006.

Copyright © 2006 by Duke University Press.

www.daralthaqafa.com

الفهرس

المحتويات **الرقم**

****

شكر وتقدير 9

مقدمة المحررين..... 11

الطبعة الأولى 1876 67

تقديم المحررين..... 69

تمهيد المؤلف..... 73

الفصل الأول: الجماجم الإجرامية (ست وستون جمجمة..... 75

الفصل الثاني: الأنثروبومترية وملامح الوجه، لثمانمئة واثنين وثلاثين مجرمًا 83

الفصل الثالث: الوشوم..... 93

الفصل الرابع: عواطف المجرمين 101

الفصل الخامس: المجرمون والدين..... 111

الفصل السادس: ذكاء المجرمين وتعليمهم..... 113

الفصل السابع: المصطلحات 121

الفصل الثامن: الأدب الإجرامي..... 123

الفصل التاسع: الجنون والجريمة..... 125

الفصل العاشر: الجريمة المنظمة 131

الفصل الحادي عشر: الارتداد والعقاب..... 139

الطبعة الثانية 1878 151

تقديم المحررين..... 153

تمهيد المؤلف..... 157

www.daralthaqafa.com

الفصل الثاني عشر: الانتحار بين المجرمين 161
الفصل الثالث عشر: مجرمو العاطفة 167
الفصل الرابع عشر: العود، والأخلاق، والندم 171
الفصل الخامس عشر: خطوط أيدي المجرمين 175
الفصل السادس عشر: مسببات الجريمة: الطقس والعرق..... 179
الفصل السابع عشر: مسببات الجريمة: الحضارة، والكحول، والوراثة..... 187
الفصل الثامن عشر: مسببات الجريمة: العمر، والجنس، والتربية
الأخلاقية، والأعضاء التناسلية، والتقليد 197
الفصل التاسع عشر: منع الجريمة..... 207
الفصل العشرون: سياسة العقاب..... 215
الملحق 1: جيوفاني كافاجليا..... 225
الملحق 2: فحص طبي لقتل الوالدين والجنون..... 231
الطبعة الثالثة 1884 243
تقديم المحررين..... 245
تمهيد المؤلف..... 249
الفصل الحادي والعشرون: الجريمة والكائنات الحية الدنيا 253
الفصل الثاني والعشرون: الجريمة والبغاء بين الهمج..... 263
الفصل الثالث والعشرون: جذور العقوبة..... 273
الفصل الرابع والعشرون: الجنون الأخلاقي، والجريمة بين الأطفال..... 279
الفصل الخامس والعشرون: شذوذ الدماغ والأعضاء الداخلية..... 293
الفصل السادس والعشرون: صور المجرمين بالميلاد..... 299
الفصل السابع والعشرون: الحساسية، وحُمرة الخجل عند المجرمين 305
الفصل الثامن والعشرون: الجنون الأخلاقي، والإجرام بالميلاد..... 315
الفصل التاسع والعشرون: ملخص الطبعة الثالثة..... 327

www.daralthaqafa.com

الطبعة الرابعة 1889 339
تقديم المحررين..... 341
تمهيد المؤلف..... 345
الفصل الثلاثون: الأيض، والحيض، والخصوبة..... 357
الفصل الواحد والثلاثون: التواصل الاجرامي..... 361
الفصل الثاني والثلاثون: الفن والصناعة بين المجرمين 367
الفصل الثالث والثلاثون: المجرم المصاب بالصرع..... 371
الفصل الرابع والثلاثون: المجرمون المصابون بالصرع، والمجرمون بالميلاد 379
الفصل الخامس والثلاثون: فسيولوجيا ومسببات الصرع 389
الفصل السادس والثلاثون: المجرم المجنون..... 399
الفصل السابع والثلاثون: بيولوجيا وسيكولوجيا المجرمين المجانين..... 405
الفصل الثامن والثلاثون: المجرم الكحولي..... 413
الفصل التاسع والثلاثون: المجرم الهستيري..... 419
الفصل الأربعون: الماتويد The Mattoid..... 423
الفصل الواحد والأربعون: المجرم العرضي..... 429
الطبعة الخامسة 1896– 1897..... 449
تقديم المحررين..... 451
الفصل الثاني والأربعون: الجماجم الإجرامية (تسعٌ وثمانونَ وستمئةِ جمجمةٍ 455
الفصل الثالث والأربعون: الأنثروبومترية، وملامح الوجه لثمانيةٍ وستمئةٍ
وستةِ آلافِ مجرمٍ..... 463
الفصل الرابع والأربعون: المجرمون السياسيون 473
الفصل الخامس والأربعون: مسببات الجريمة: الكثافة الحضرية، وإدمان
الكحول، والثروة، والدين 477
الفصل السادس والأربعون: مسببات الجريمة: الوراثة، والجنس، والسياسة .. 489

www.daralthaqafa.com

الفصل السابع والأربعون: منع الجريمة..... 497
الفصل الثامن والأربعون: تطبيقات التوليف والعقوبة 507
المراجع.....**539**

www.daralthaqafa.com

مقدمة المحررين

يقدم هذا الكتاب لقراء اللغة الإنجليزية أول ترجمة علمية نقدية لكتاب: "الرجل المجرم" (*L'uomo delinquente*)، وهو: العمل الكلاسيكي للطبيب الإيطالي تشيزارى لومبروزو (1835–1909). إنه يوفر كتابًا مصاحبًا لترجمتنا السابقة لأعمال لومبروزو الرئيسة الأخرى: (المرأة المجرمة، والمومس، والمرأة العادية)[1]. حيث صدر كتاب: الرجل المجرم Criminal Man لأول مرة عام 1876، مجلدًا واحدًا صغيرًا، وخضع إلى خمس طبعات خلال حياة لومبروزو، وتوسعت كل طبعة بشكل كبير من حيث الحجم والمواضيع التي تناولتها[2]. وكان أن ظهرت الطبعة الأخيرة، التي نُشرت عامي: 1897/1896، في أربعة مجلدات، كان آخرها بعنوان: أطلس (*Atlante*)، ويتألف معظمه من جداول، وخرائط، ورسومات، وصور فوتوغرافية. وتقدم هذه الترجمة الجديدة مقتطفات مطولة من الطبعات الخمس جميعًا؛ بأن تُمْكِن للقراء متابعةُ تحولات فِكَرِ لومبروزو طوال حياته المهنية. وهذا على عكس الترجمات الإنجليزية السابقة، التي هي مجزأة، ويعود تاريخها إلى قرن من الزمان تقريبًا، كما يكشف هذا الكتاب لأول مرة عن تشابك فِكَرِ لومبروزو[3].

فقد عُرِفَ لومبروزو بنظريته عن المجرم بالميلاد (*delinquente nato*)، وهو: فرد خَطِرٌ، يتميز بما أسماه: شذوذًا جسديًّا ونفسيًّا. وبالنسبة إلى لومبروزو، يثبت هذا الشذوذ، الذي يشبه سمات الشعوب البدائية، والحيوانات، وحتى النباتات، يثبت أن أخطر المجرمين كانوا ارتدادًا على المستوى المتحول. ونظرًا إلى إمكانية فحص الشذوذ وإحصائه وتصنيفه، فقد وعد لومبروزو بتحويل دراسة الإجرام إلى علم تجريبي، وأطلق على مجاله البحثي الجديد: (الأنثروبولوجيا الجنائية)، مما يعكس رغبته في إعادة توجيه التفكير القانوني، من الجدل الفلسفي لطبيعة الجريمة، إلى تحليل خصائص المجرم.

www.daralthaqafa.com

وقد بدأنا هذا المشروع بازدراء ما فهمناه، على أنه التبسيط الفكري لنظرية لومبروزو عن الارتداد، وبخوف من أن حتميته البيولوجية كانت ضارة بالنساء، والسود، والمجموعات الاجتماعية الأخرى، التي عَدَّها أقل شأنًا. لقد بدا العديد من استنتاجاته سخيفًا، وكان مشروعه مثالًا مخيفًا بارزًا عن العلوم السيئة.

ولكن تغيرت وجهة نظرنا، بناءً على قراءتنا المتأنية لأعماله الجنائية، وبحثنا عن مكانته في التاريخ الإيطالي، وبحثنا عن تحولات علم الإجرام في البلدان الأخرى. وتبين لنا الآن أن لومبروزو كان فضوليًّا، ومتفاعلًا، وحيويًّا لجوانب الثقافة المختلفة، مع شهية هائلة للأدب والفن والفولكلور، وكذلك: للعلوم الطبيعية، والطب، والطب النفسي، والقانون. لذا: فإن كونه متهورًا، ومخطئًا غالبًا في شأن الاستنتاجات، التي استخلصها من البيانات المتباينة، التي قدمتها هذه الحقول، تهوره وخطؤه هذان لا ينتقصان من أهمية مشروعه.

وعلى الرغم من أن نظرية لومبروزو الجنائية، معروفة بحتميتها البيولوجية، إلا أنها تتبنى أيضًا الأسباب الاجتماعية للجريمة، فقد تعاطف لومبروزو –؛ بصفته شابًّا ليبراليًّا مؤيدًا للوحدة الإيطالية، وبعد ذلك: عضوًا في الحزب الاشتراكي الإيطالي– مع الطبقات العاملة، ودعا إلى سلسلة من الإصلاحات الجذرية في بعض الأحيان؛ لتقليل الفقر، ومنع انتهاك القانون[4]، حيث اقترح بدائل إنسانية للسجن لمن يسمون: مجرمين عرضيين، أو أولئك الأفراد، الذين دفعتهم البيئة السيئة إلى الجريمة، وصار بطلًا متحمسًا للمؤسسات الطبية الخاصة بالمجرم المجنون. ويجسد هذا الإصدار الجديد من كتاب: (الرجل المجرم)، تشابك نظرية الجريمة متعددة الأسباب، التي وضعها لومبروزو، ويوثق مجموعة مقترحاته الواسعة لتحويل هذه النظرية إلى سياسة عملية.

فقد برز لومبروزو – وهو: أبرز مفكر إيطالي في عصره – زعيمًا لحركة دولية، تسمى: المدرسة الوضعية أو العلمية لعلم الإجرام، حيث قاد الثورة ضد المدرسة الكلاسيكية لعلم العقاب، التي ترجع جذورها إلى عصر التنوير في القرن الثامن عشر،

www.daralthaqafa.com

وإلى كتاب: (سيزار بيكاريا) البارز "عن الجرائم والعقوبات (1764)"[5]. فعلى عكس تأكيد (بيكاريا) حرية الاختيار للمجرمين، ورأيه أن تتناسب العقوبة مع الجريمة، يحث لومبروزو على أن تتناسب شدة العقوبة مع خطورة المجرم، الذي لم يكن انتهاكه للقانون نتيجة حرية الاختيار، بل محتومًا؛ بسبب عوامل بيولوجية، ونفسية، واجتماعية. وعلى الرغم من أن ما يسمى: النموذج الطبي للجريمة – والذي بموجبه: يتطلب الإجرام، مثل المرض، فحصًا سريريًّا وعلاجًا فرديًّا – لم يكن جديدًا تمامًا، إلا أن لومبروزو كان أول من تصور علم الإجرام كنظام أكاديمي جديد، مستقل عن القانون وعلم الصحة العام.

هذا، وقد تُرجم كتاب: "الرجل المجرم" إلى الفرنسية عام (1887)، وإلى الألمانية عام (1887–1890)، وإلى الروسية عام (1889)، وإلى الإسبانية عام (1899)، وصارت نظرية لومبروزو عن المجرم بالميلاد مركزًا للنقاش، في المؤتمر الدولي الأول للأنثروبولوجيا الجنائية[6].

لقد عُرِفَ لومبروزو في الداخل والخارج بفضوله المفعم بالحيوية، وتفكيره المبتكر، وتفانيه في ترجمة الفِكَرِ إلى إصلاحات عملية. وهو باحث وكاتب رائع، كتب أكثر من ثلاثين كتابًا، وألف مقالة خلال حياته[7]. ولإقداره قدره كمفكر رائد في إيطاليا، دُعي للكتابة في الصحف والمجلات الشعبية عن القضايا الرئيسة اليومية، حتى تلك التي لا علاقة لها بالجريمة. وكان أن أثّر في عدة أجيال من الطلبة، وقد طبق كثير منهم نظرياته، حيث صار بعضهم أعضاء في المجلس التشريعي، أو قضاة، أو مديري سجون، أو مديري شرطة[8]. كما أدرجت مجلته (أرشيف الأنثروبولوجيا الجنائية) ثمانية وستين مشاركًا على ترويستها، في العدد التأسيسي لعام 1880، وقد ازداد عدد المشاركين ليصير مئة وستة في مدة عشرة أعوام. واشتملت كلتا القائمتين العديد من الأسماء الأجنبية، وهو نمط، تكرر في هوامش كتاب الرجل المجرم الطويلة، إذ يشكر العديد من الزملاء؛ لاستخدام بياناتهم، ويستشهد بدراسات إضافية

www.daralthaqafa.com

تدعم استنتاجاته. وتظهر هذه الهوامش الاتساع الدولي لقراءة لومبروزو؛ فهو يجيد عددًا من اللغات، وكان قادرًا على متابعة التحولات في أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية كلها.

بيد أنه على الرغم من الوضع الأيقوني لكتاب: الرجل المجرم؛ بِعَدِّهِ الكتاب التأسيسي لعلم الجريمة، فلا توجد ترجمة إنجليزية كاملة لأيٍّ من الطبعات الخمس! ويمكن لكتابين فقط باللغة الإنجليزية أن يدعيا العلاقة بكلاسيكية لومبروزو، وكلاهما يقدم رؤية مجزأة ومشوهة لمشروعه الأكبر! ثم عام 1911، أصدرت ابنة لومبروزو (جينا لومبروزو فيريرو) ملخصًا موجزًا لكتاباته، بعنوان: الرجل المجرم، والذي عُدَّ خطأً بمثابة ترجمة للعمل الأصلي[9]. وعلى الرغم من أن (جينا لومبروزو فيريرو)، وهي طبيبة وموظفة لوالدها، تقدم ملخصًا دقيقًا لمفهوم لومبروزو عن المجرم بالميلاد، إلا أنها تبالغ بشكل جذري في تبسيط نظرية معقدة وحتى متناقضة، في الطبعات الأصلية للرجل المجرم! ففي كتابها، نسمع كلماتها بدلًا من كلمات والدها! كما يترك الكتاب انطباعًا لدى القراء، بأن نظريته كانت ثابتة، وليست في حالة تغير مستمر! والمشكلة الأخيرة ذاتها أيضًا قد شوهت الكتاب المعنون: (الجريمة: أسبابها وعلاجها)، المنشور عام 1911 أيضًا، والذي يترجم المجلد الثالث، من الطبعة الخامسة، من كتاب: الرجل المجرم[10]، حيث يتكون أكثر من نصف الكتاب من تركيب، مثل: كتاب لومبروزو فيريرو، تسطح الفروق الدقيقة، وتمحور التحول الزمني لفكر لومبروزو..، فيهمل كل المواد الواردة في المجلدين الأولين من الطبعة الخامسة، بما في ذلك: المواضيع المهمة التي شغلت لومبروزو في الطبعة الأولى لعام 1876. هذا، وتلبي ترجمتنا الجديدة؛ من خلال توفير مقتطفات من جميع الطبعات الخمس بترتيبها الزمني، سد الحاجة إلى إصدار باللغة الإنجليزية من كتاب: الرجل المجرم، الذي يتتبع تاريخ نظرية لومبروزو عن المجرم بالميلاد، والأنثروبولوجيا الجنائية بشكل عام.

www.daralthaqafa.com

أهداف الطبعة الجديدة

هذه الطبعة الجديدة من كتاب: (الرجل المجرم) – مثل كتاب: (المرأة المجرمة) الذي نشر سابقًا –، لها غرض مزدوج، فهو: تقديم ترجمة إنجليزية مناسبة، للمرة الأولى، لعمل لومبروزو الكلاسيكي، وهو: وضع الأسس لجيل جديد، منبثق عن علم لومبروزو.

فقبل نشر طبعتنا الأخيرة من كتاب: (المرأة المجرمة، والمومس، والمرأة العادية) عام 2004، كان القليل من نصوص لومبروزو الأصلية متاحًا باللغة الإنجليزية، وكانت الترجمات الحالية غير مكتملة، ونفدت. كما كان كتاب: "المرأة المجرمة" *La donna delinquente* هو: عمل لومبروزو الوحيد المتعلق بعلم الجريمة، الذي ظهر باللغة الإنجليزية خلال حياته، ومن ثم: صار قناة فكره إلى العالم الأنجلو أمريكي[11]. ثم صدر عام 1895، تحت عنوان: الجانية (*The Female Offender*)، وقد حذفت الترجمة الأولى أقسامًا رئيسة عن ما يسمى: النساء العاديات، والجنس الأنثوي، والدعارة. كما يشكل الإصداران من كتاب: (الرجل المجرم) المذكوران أعلاه، واللذان ظهرا بعد وفاة لومبروزو، يشكلان ملخصات غير كاملة للشكل النهائي لنظريته. ولأن هذه الإصدارات قدمت فِكَرَهُ بجمود واصطناع، فقد كانت ذات فائدة محدودة للباحثين، الذين يحاولون تتبع أصول علم الإجرام! لقد ضللوا أجيالًا من الطلاب؛ لتبني وجهة نظر مبسطة ونمطية عن لومبروزو، الرجل الذي ورد اسمه في العديد من كتبهم المدرسية، على أنه (أبو علم الإجرام الحديث)[12].

فالارتفاع الأخير في عدد الأبحاث حول لومبروزو، يجعل ظهور هذه الطبعة الجديدة من "الرجل المجرم" مناسبًا بشكل خاص. حتى الباحثون الذين يقرؤون اللغة الإيطالية، يجدون صعوبة كبيرة في إيجاد جميع الطبعات الخمس الأصلية، خاصة: الطبعة الأولى النادرة، وهذا صحيح، ليس في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية فقط، ولكن في إيطاليا أيضًا؛ إذ حتى متحف لومبروزو في تورينو، يحتفظ بثلاث نسخ فقط من

www.daralthaqafa.com

الطبعات الخمس. وعلى الرغم من الترجمة المبكرة للرجل المجرم إلى الفرنسية، والألمانية، والروسية، والإسبانية، فإنه لا يتوافر سوى طبعة واحدة أو طبعتان في كلٍّ من هذه اللغات، ومن ثم: فإن هذه الطبعة الجديدة توفر المصدر الوحيد في أي لغة، مع مختارات من جميع الطبعات الخمس من: الرجل المجرم[13].

وبسبب الطبيعة المضللة للترجمات الحالية، لطالما سُخر من نظرية لومبروزو؛ بِعَدِّها حتمية بيولوجية مبسطة، ذات فِكَرٍ رجعيةٍ، فلم يكن لدى قراء اللغة الإنجليزية سوى القليل ممن فهموا السياق الإيطالي لنظرية لومبروزو، أو الأهداف السياسية لمقترحاته لإصلاح الشرطة، والمحاكم، والعقاب. وعلاوة على ذلك، فإن إسهام التفكير الحتمي البيولوجي في ظهور الحركة الدولية لتحسين النسل، قد جعل النظريات الوراثية للجريمة لعنة لمعظم العلماء، بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد أن أبادت معسكرات الموت النازية اليهود على أساس "عرقهم"، صار العلماء غير مستعدين للاعتراف بالتمييز بين أسلاف النظريات البيولوجية للاختلافات العرقية. لقد أغفلوا حقيقة أن لومبروزو نفسه كان يهوديًّا، وأن فِكَرَهُ، على الرغم من تصنيفها بشكل صحيح على أنها عنصرية، لم تكن مماثلة لفِكَرِ النازيين – أو حتى الفاشيين الإيطاليين – الآيديولوجيين المعادين للسامية.

وقد بدأ الباحثون الجدد في إعادة تقييم مكانة لومبروزو، في مجموعة متنوعة من السياقات، بما في ذلك: تاريخ علم الإجرام، والعلم، والعرق، والجنس. وتُظهر هذه الأعمال الجديدة أن العديد من آراء لومبروزو كان معياريًّا في عصره، ومتجذرًا في الدوافع الإنسانية، ففي عمل رائد بعنوان:

Il deviante e i suoi segni: Lombroso e la nascita dell'antropologia criminale

الجنوح وعلاماته: لومبروزو وولادة الأنثروبولوجيا الجنائية

يضع المؤرخ الإيطالي (رينزو فيلا) سعي لومبروزو نحو تحديد علامات الجنوح على جسم وعقل المجرم، يضعه في سياق علم العقاب والطب في القرن التاسع عشر[14].

www.daralthaqafa.com

وتناقش (ماري جيبسون) في كتابها:

Born to Crime: Cesare Lombroso and The Origins of Biological Criminology

ولد للجريمة: تشيزارى لومبروزو وأصول علم الجريمة البيولوجي

أن تشابك نظرية لومبروزو قد أثر في كلٍّ من التحولات السياسية الليبرالية، والمحافظة داخل نظام العدالة الجنائية الإيطالي[15].

وفي كتاب (ديليا فريجسي)، بعنوان: تشيزارى لومبروزو Cesare Lombroso، تقدم المؤلفة وصفًا تفصيليًّا للعلاقة الوثيقة بين السيرة الفكرية للومبروزو، وبين التحولات الأوسع في العلم والطب النفسي[16].

ويوضح (ديفيد هورن) في كتابه:

The Criminal Body: Lombroso and the Anatomy of Deviance

الجسد الإجرامي: لومبروزو وتشريح الجنوح

يوضح كيف شجعت أدوات القياس الجديدة لومبروزو، وغيره من علماء الجريمة، في القرن التاسع عشر، شجعتهم على رؤية الحقائق الأخلاقية المنقوشة على الجسم المادي[17].

فتتوافق البحوث الجديدة في أن نظرية لومبروزو تشترك في العديد من الافتراضات والأساليب والاستنتاجات، مع مجتمع علمي وقانوني واسع. وبدلًا من رفض الأنثروبولوجيا الجنائية بِعَدِّها علمًا ساذجًا أو منحرفًا، بدأ العلماء في تحديد موقعها في السياق الواسع؛ لإنتاج المعرفة العلمية أواخر القرن التاسع عشر. كما توثق الدراسات الجديدة لعلم الجريمة في القرن التاسع عشر في أوروبا والأمريكتين مكانة لومبروزو الدولية.

ونظرًا إلى ندرة الأبحاث حول أصول علم الإجرام، فقد ظل تأثير لومبروزو خارج إيطاليا حتى وقت قريب إما غير معترف به، وإما بِعَدِّهِ غير مهم، مقارنة بالتقاليد

www.daralthaqafa.com

القانونية الوطنية. وقد شجع استنكار وشجب علماء الجريمة الفرنسيين لمفهوم المجرم بالميلاد في المؤتمر الدولي للأنثروبولوجيا الجنائية عام 1889، شجعا العلماء على التقليل من أهمية تأثير لومبروزو الدولي، ومع ذلك، فقد جادل المؤرخان: (لورينت موشيلي) و(مارك رينيفيل) مؤخرًا، في أن المعارضة الفرنسية للومبروزو قد استندت على المشاعر القومية، أكثر من المعارضة الحقيقية[18]. وعلى الرغم من تسمية أنفسهم: مدرسة الوسط الاجتماعي، فقد اتفق علماء الجريمة الفرنسيون في أن علم الأحياء والوراثة يلعب أدوارًا مهمة في مسببات الجريمة. وعلاوة على ذلك، اختلفت نظريتهم عن الارتداد بشكل أساسي في تأكيدها الظروف الاجتماعية المعاكسة، التي قد تبدأ في التدهور البيولوجي للعائلة. وكان أن قدم (ريتشارد ويتزل) حجة مماثلة لألمانية، إذ قَبِلَ علماء الجريمة، الذين رفضوا تعريف لومبروزو للمجرم بالميلاد، النموذج الطبي؛ لتحديد ومعالجة منتهكي القانون[19]. ووفقًا لكتاب جديد من تأليف (نيل ديفي)، كان للأنثروبولوجيا الجنائية التي وضعها لومبروزو تأثير كبير حتى في إنجلترا، التي وصفت تقاليدها في علم الإجرام سابقًا بأنها جزء لا يتجزأ من الأنشطة العملية لأطباء السجون، وذلك لدمجها في نظرية قارية[20].

كما تبنت الدول خارج أوروبا أيضًا فِكَرَ وأساليب لومبروزو، في محاولة غالبًا لوضع علم الإجرام على أساس علمي حديث. ففي كتابها: (إنشاء المجرمين بالميلاد Creating Born Criminals)، أوضحت (نيكول هان رافتر) كيف شكلت النظريات البيولوجية للجريمة سياسات ومؤسسات جديدة للأفراد، الذين يُعَدُّوْنَ مجرمين، أو مجانين، أو ضعيفي العقل في الولايات المتحدة[21]. وصار عدد من علماء الجريمة الأمريكيين قنوات لفِكَرِ لومبروزو، مما عوض عن ندرة الترجمات الإنجليزية لعمله. وبدأ مؤرخو أمريكا اللاتينية في توثيق الأثر العميق للأنثروبولوجيا الجنائية في مصلحي القانون والعقاب في تلك المنطقة[22]. كما حصل رجال القانون وعلماء الجريمة في أمريكا اللاتينية على إمكانية الوصول إلى فِكَرِ لومبروزو؛ من خلال

www.daralthaqafa.com

الترجمات الإسبانية لكتبه، ومن جولات محاضرات (إنريكو فيري) عامي 1908 و1910، وهو عضو بارز آخر في المدرسة الوضعية الإيطالية. ووثق تأثير لومبروزو الذي وصل حتى إلى آسيا، في مجموعة من المقالات، بعنوان: (المجرمون وعلماؤهم) (Criminals and Their Scientists)[23].

ولقد صار لومبروزو نقطة اتصال لمجموعة متنوعة من المجالات، خارج تاريخ علم الإجرام والطب، بما في ذلك: دراسات المرأة، ودراسات العرق، وتاريخ الجنس. بيد أنه قد تم التعتيم على مكانة لومبروزو كطبيب مختص في علم الجنس؛ من خلال حذف الإشارات الصريحة للأعضاء التناسلية والسلوك الجنسي، وذلك من المترجمين الإنجليز، والتي أعدناها الآن إلى النص. كما إنه يستحق الإقدار بِعَدِّهِ جامعًا لفنون المجرمين ومهنهم، حيث احتفظ متحف لومبروزو في تورينو بمجموعة لومبروزو الأصلية لرسومات وصور المجرمين، فضلًا عن اللوحات، والمنحوتات، والأثاث الذي صنعه المجرمون. ويتضمن هذا الكتاب أكثر من أربعين نموذجًا لهذا الفن، مأخوذة من كتبه الأصلية، ومن الصور التي التقطت من المتحف. ويتضمن أيضًا أمثلة على مجموعة أخرى من الأعمال التي جمعها لومبروزو – الكتابة الجنائية. وكتلميذ مستجد لثقافة السجن، حلل لومبروزو القصائد، والكتابة على الجدران، وشكل مخطوطات السجناء؛ بحثًا عن مفاتيح ألغاز شخصياتهم الأخلاقية. ويتضح أيضًا مزيج لومبروزو من ازدراء والإعجاب بإبداع المجرم، في تحليله الشامل للوشم، وهو شكل فني، يجمع بين الرسم وبين الكتابة.

تفسير لومبروزو للجريمة

في كتاب: الرجل المجرم، يتمثل الادعاء الرئيس للومبروزو في تحويل دراسة الجريمة إلى علم، يستخلص نتائجه من البيانات التجريبية، ودراسات الحالة السريرية. وكان هذا النهج متسقًا مع تدريبه الطبي في جامعات: بافيا، وبادوا، وفيينا. وقد أظهرت أطروحته عن الفدامة (cretinism)، وهو: اضطراب عقلي منتشر في المناطق الفقيرة

www.daralthaqafa.com

في إيطاليا، أظهرت اهتمامه المبكر بالطب النفسي، ودافعه الإنساني لمعالجة القضايا الاجتماعية. وكطبيب عسكري شاب خلال حروب الوحدة الإيطالية، وَسَّعَ لومبروزو بسرعة أسلوبه المميز في قياس ومراقبة جثث مرضاه، وهم في هذه الحالة جنود. وطبق فيما بعد هذه الطريقة، مع استكمالها بمقابلات نفسية، على المرضى العقليين، وأخيرًا: على المجرمين. وقد شغل لومبروزو مناصب في كلٍّ من المصحات العقلية والسجون، وقام بفحص آلاف الأفراد خلال حياته، ونفذ توجيهه البارز: دراسة المجرم، بدلًا من الجريمة.

ولم يكن مسار لومبروزو الفكري غريبًا أواخر القرن التاسع عشر، عندما كانت هيبة العلم، وخاصة: علم الأحياء، في صعود، حيث اعتمد لومبروزو على شعبية نظرية التطور لـ(تشارلز داروين)؛ لإقناع قراء كتاب: الرجل المجرم، بالصلاحية العلمية لنظريته عن الارتداد الإجرامي. وبالنسبة إلى المفكرين الليبراليين والعلمانيين مثل: لومبروزو، قدم العلم ثقلًا موازنًا للدين، وأداة للتقدم نحو مجتمع أكثر ليبرالية. وسعيًا نحو دمج الأساليب التجريبية في اختصاصاتهم، فقد انضم العلماء في العلوم الاجتماعية الناشئة، وحتى العلوم الإنسانية التقليدية، إلى علماء الطبيعة، في خلق الحركة الفكرية السائدة أواخر القرن التاسع عشر – الوضعية. فليس من المستغرب إذن: أن لومبروزو وأتباعه قد أطلقوا على أنفسهم بفخر: المدرسة الوضعية لعلم الإجرام، كما قد انتقدوا أتباع (بيكاريا) لفلسفتهم التجريدية؛ إذ كان في إمكانهم أن يجمعوا البيانات؛ من خلال الاتصال الفعلي مع الجناة.

وعلى الرغم من ادعائه بأنه رائد وحيد في تطبيق العلوم على علم العقاب، فقد اعتمد لومبروزو على الحركات السابقة، التي بدأت البحث عن السمات الجسدية والنفسية للمجرمين، حيث كان أولها: علم فراسة الدماغ، أوائل القرن التاسع عشر، والذي حدد مواقع القدرات الفكرية والعاطفية في مناطق معينة من الدماغ . فبينما رفض لومبروزو خريطة علماء فراسة الدماغ للجمجمة، لكنه تبنى افتراضهم أن السمات الجسدية

www.daralthaqafa.com

الخارجية، تعكس الحالات الأخلاقية الداخلية[24]. ولقد قبل تمامًا المفهوم الثاني، الذي حَسَّنَهُ الأطباء النفسيون أوائل القرن التاسع عشر، الجنون الأخلاقي؛ كتشخيص للأفراد الذين قاموا بأفعال منحرفة، بينما ظلوا عقلانيين ومنطقيين[25]. فقد ذُكِرَ الجنون الأخلاقي بإيجاز في الطبعة الأولى، من كتاب: "الرجل المجرم"، وهو عنصر أساسي في نظرية لومبروزو للمجرم بالميلاد، في الطبعة الثالثة. ثم إنه في جميع طبعات الرجل المجرم، يستشهد لومبروزو أيضًا بالنتائج، التي توصل إليها (كتيليه Quetelet) و(جيري Guerry)، اللذان بدأا في عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر، في دراسة الإحصائيات الأخلاقية، أو القياس الكمي لأنماط السلوك البشري؛ مثل: الجريمة[26]. ثم بعد توصلهما إلى أن معدلات الجريمة الوطنية الإجمالية قد ظلت ثابتة بمرور الوقت، ناقشا أن مصدر الجريمة ليس في الاختيار الفردي، ولكن في عوامل اجتماعية وبيولوجية أكبر، وأكثر ثباتًا. هذه البصيرة أبلغت تصريح لومبروزو المتكرر بأن الجريمة "طبيعية"، وليست نتاجًا لحرية الاختيار، وأنها ستظل جزءًا دائمًا من التجربة الإنسانية.

فيما بالنسبة إلى القراء المعاصرين، تبدو منهجية لومبروزو غير علمية، بل مضحكة، فبينما تمتلئ كتبه بجداول إحصائية، تكون هذه الجداول مضللة غالبًا، وبسيطة في افتقارها إلى التوحيد القياسي. كما إنها تظهر المجموعات الضابطة في الطبعة الأولى، من الرجل المجرم، ولكن لا توظف بشكل منهجي. والأمر الأكثر إثارة للتساؤل هو: مزج لومبروزو البيانات الكمية، مع الأدلة النوعية، مثل: الأمثال، والحكايات التاريخية، والأمثلة المستمدة من الرسم والأدب. وبدلًا من التمييز بين أنواع البيانات الموضوعية إلى حدٍّ ما، يتعامل لومبروزو مع الأدلة جميعها على أنها متساوية ومعززة. فبالنسبة إليه، لا ينتج الدليل من اتباع منهجية صارمة ومحددة بوضوح، ولكن من تراكم الأمثلة؛ بغض النظر عن اختلافها. وعلى الرغم من هذه الإخفاقات، إلا أن نهج لومبروزو لم يقع خارج نطاق أبحاث العلوم الاجتماعية السائدة

www.daralthaqafa.com

في عصره، فقد كانت الإجراءات الإحصائية بدائية، والبيانات الموثوقة نادرة في مجالات جديدة، مثل: علم الجريمة. وقد شارك زملاء لومبروزو في الطب والأنثروبولوجيا العديد من افتراضاته المعيبة، بما في ذلك: الاعتقاد بأن السمات الجسدية تشكل علامات مرئية للحالات النفسية والأخلاقية الداخلية. وباختصار، على الرغم من عيوبها المنهجية، فقد شكلت الأنثروبولوجيا الجنائية للومبروزو جزءًا من اتجاه فكري عام، في العلوم الاجتماعية الجديدة كلها، أواخر القرن التاسع عشر؛ لإضفاء الطابع الطبي على السلوك البشري.

تصنيف المجرمين

منذ وفاة لومبروزو، صارت الأنثروبولوجيا الجنائية بارزة عالميًّا؛ لتصنيفها الدقيق للمجرمين. ومع ذلك، فإن هذا الميل إلى التصنيف قد ظل غائبًا عن الطبعة الأولى، من كتاب: الرجل المجرم، حيث يجمع لومبروزو منتهكي القانون جميعهم معًا، في مجموعة واحدة غير متمايزة، يقارنها بالجنون، ويقارنها بشكل متقطع مع مجموعات ضابطة من الرجال "الأصحاء" (عادة جنود). وكان في الواقع: أن أوجد (فيري) مصطلح المجرم بالميلاد بعد أربعة أعوام، ولم تظهر في الطبعة الأولى من الرجل المجرم[27]، فقد ركز لومبروزو في أول صياغة لنظريته، على المجرمين بالارتداد، واصفًا تلك السمات الجسدية والنفسية، التي سرعان ما ارتبطت بالأنثروبولوجيا الجنائية، حيث يقرأ المرء في الطبعة الأولى، أن المجرمين، مقارنةً بالأفراد "الأصحاء"، لديهم جماجم أصغر وأكثر تشوهًا، وطولًا ووزنًا أكبر، ولحًى أخف. ومن المرجح: أن يكونوا لديهم أنوف ملتوية، وجباه مائلة، وآذان كبيرة، وفكوك بارزة، وبشرة وعينان وشعر داكن، كما إنهم يميلون إلى أن يكونوا ضعفاء جسديًّا، ولا يشعرون بالألم، وتشكل هذه السمة الأخيرة، وفقًا للومبروزو، علامة خارجة عن البلادة الأخلاقية الداخلية، التي تفسر سبب ندرة إبداء المجرمين الندم على جرائمهم، وعدم

www.daralthaqafa.com

قدرتهم على التحكم في عواطفهم، وانغماسهم في الشرب والمقامرة. ففي الطبعة الأولى، يضمن لومبروزو أيضًا فصولًا عن الوشم بين السجناء، فضلًا عن المصطلحات الخاصة بهم، والشعر، والفن. ومن وجهة نظر لومبروزو الانتقائية: يجب أن يكون العالم متيقظًا لأي وكل الأدلة، التي تشير إلى الارتداد، حتى عندما تكون هذه الأدلة اجتماعية، أكثر من كونها بيولوجية بطبيعتها، فالمجرم شخص مريض، ويجب على عالم الجريمة أن يكون مبدعًا في تحديد الأعراض، وقراءتها.

وفي الطبعة الثانية من الرجل المجرم، بدأ لومبروزو في بناء نظام تصنيف بدائي؛ من خلال إنشاء فئة جديدة، تسمى: المجرم بالعاطفة، حيث يختلف مجرمو العاطفة عن غيرهم من المجرمين من نواحٍ عديدة: فهم يميلون إلى امتلاك سمعة طيبة قبل ارتكاب جرائمهم، ويتوبون حالًا، ودوافعهم "كريمة وسامية في كثير من الأحيان"[28]. قد يشمل ذلك الغضب من الزوج الزاني، أو الالتزام بفكرة سياسية محظورة. كما قد يفقد كلٌّ من الأزواج الغيورين والمتمردين السياسيين السيطرة على عواطفهم للحظات، لكن في كلتا الحالتين: لا يظهرون عادة الشذوذ الجسدي، أو الأخلاقي مثل القتلة العاديين.

وفي الطبعة الثالثة من الرجل المجرم، كان أن اعتمد لومبروزو تصنيف (فيري) للمجرم بالميلاد، وهو تصنيف، اكتسب معرفة دولية بسرعة، كما قد وجهت انتقادات فورية؛ إذ سخر المعارضون من عدم قدرة علماء الأنثروبولوجيا الجنائية الإيطاليين، على تحديد شذوذ واحد شوه المجرمين بالميلاد جميعًا، وردًّا على ذلك، اقترح لومبروزو أن يتم تصنيف أي فرد يظهر مجموعة من خمسة شذوذات أو أكثر على أنه: "النوع: المجرم الكامل"، على الرغم من أنه قد أكد أيضًا أنه: حتى الشذوذ المعزول، يميز الجاني أنه: معيب النشأة، ومن ثم: يحتمل أن يكون خَطِرًا[29]. لقد أعلن لومبروزو – في الطبعة الثالثة، من الرجل المجرم– أن أربعين في المئة من المجرمين هم: مجرمون بالميلاد، وقد خفض هذه النسبة إلى خمسة وثلاثين في المئة، في الطبعة الخامسة[30]. وفي كتابه: (الجريمة: أسبابها وعلاجها)، كان أن خفض النسبة إلى

www.daralthaqafa.com

نسبة أقل من ثلاثة وثلاثين في المئة[31]. لقد كان تخفيض لومبروزو وتقديره حجم المجرم بالميلاد، حتى بعد نشر الطبعة الأخيرة من كتاب: الرجل المجرم، كان خضوعًا إلى ضغوط النقاد، وهذا ما أكده ملخص جينا لومبروزو فيريرو باللغة الإنجليزية، الذي يكرر الرقم الأدنى، البالغ ثلاثة وثلاثين في المئة[32].

هذا، ولا تقدم الطبعة الثالثة من الرجل المجرم مصطلح المجرم بالميلاد فقط، بل تعيد تكوين العلاقة بين الإجرام، وبين الجنون أيضًا، ففي الطبعتين الأوليين، يسعى لومبروزو إلى التفريق بين الإجرام، وهو: حالة فطرية موجودة منذ الولادة، وبين الجنون، وهو: مرض يتطور في وقت لاحق من الحياة عادةً. ومع ذلك: في الطبعة الثالثة، يقر بأن الجريمة والمرض العقلي يندمجان في الجنون الأخلاقي: الأفراد الذين يبدون طبيعيين في الذكاء، ولكنهم غير قادرين على التمييز بين الخير وبين الشر، هؤلاء عند اختبار الحساسية الجسدية، فإنهم يظهرون، بحسب لومبروزو، بلادة في اللمس، تتوافق مع فراغهم الأخلاقي. ولدعم أطروحته حول: "التشابه الكامل بين المجنون أخلاقيًا وبين المجرم بالميلاد"، فقد حدد الدراسات التي وجدت الجنون الأخلاقي منتشرًا بين نزلاء السجون. وفي هذه الطبعة نفسها، أعلن لومبروزو أيضًا أن مفهوم الارتداد غير كافٍ لشرح وجود العديد من التشوهات في المجرمين بالميلاد جميعهم، ولا سيما في الجنون الأخلاقي. ولكن بدلًا من التخلي عن فكرته المحبوبة عن الارتداد، يضيف لومبروزو المرض إلى الارتداد، كسبب محتمل لتوقف النمو، أو تدهور الوظائف البيولوجية والعقلية. وعلى الرغم من أن لومبروزو ينتقد علماء الإجرام الآخرين؛ لاعتمادهم بشكل كبير على نظرية الانحطاط، إلا أنه وجدها مفيدة في شرح كيف يمكن للعوامل الاجتماعية – مثل: إدمان الكحول، أو الأمراض التناسلية، أو سوء التغذية –، أن تبدأ الانحدار البيولوجي والنفسي لدى الأفراد ولدى ذراريهم . هنا: قد يبدو أن تبني لومبروزو نظرية الانحطاط، وهو مفهوم فرنسي في الأصل، يشير إلى هزيمة الأنثروبولوجيا الجنائية، ولكن بدلًا من ذلك، وسعت نطاقها وقابليتها

www.daralthaqafa.com

للتطبيق. ويمكن أن يحسب لومبروزو الآن أي تشوه، ولو كان يُعزى إلى المرض بدلًا من الارتداد، كواحد من مجموعة حالات التشوه، التي تحدد المجرم بالميلاد.

ونجد أنه في الطبعة الرابعة من كتاب: الرجل المجرم، أضاف لومبروزو الصرع إلى الارتداد والجنون الأخلاقي؛ كأسباب للإجرام بالميلاد. وبينما يؤيد الفكرة الشائعة في عصره، القائلة: إن مرضى الصرع قد يرتكبون جرائم أثناء التشنجات، فإنه يذهب أبعد من ذلك؛ من خلال عَدِّ "الصرع الخفي" (*epilessia larvata*) محفزًا لخرق القانون، لدى الأفراد الذين لا يعانون من أعراض جسدية. وهكذا بحلول عام 1889، صار الصرع بالنسبة إلى لومبروزو أساسًا عامًّا لكل سلوك إجرامي، يشمل الجنون الأخلاقي والارتداد. وهو عامَئِذٍ يوضح الاختلافات بين الفئات الثلاث، على أنها في الأصل تتعلق بالمقياس، مبينًا: "يتداخل أخطر حالات الجنون الأخلاقي، مع حالات الإجرام بالفطرة، في حين أن مجرمي الصرع، الذين يعانون من نوبات عنيفة، يشبهون الجنون الأخلاقي، وبشكل عام: فإن الظواهر الثلاث متشابهة". ومع ذلك كما يشير هذا الاقتباس، لم يوضح لومبروزو أبدًا العلاقة بين الارتداد، وبين الجنون الأخلاقي، وبين الصرع، بدقة في نظريته المجرم بالميلاد.

فيعود لومبروزو إلى المجرم المجنون في الطبعة الرابعة، ويحدد ثلاث فئات فرعية إضافية: المجرم الكحولي، والمجرم الهستيري، والماتويد (the mattoid)، حيث يكون المجرمون المدمنون على الكحول خالين من التشوهات الجسدية عادةً، لكن الإفراط في شرب الخمر يتسبب في تطوير الصفات النفسية ذاتها للمجرمين بالميلاد: الاندفاع، والقسوة، وعدم الندم، والكسل. ويرث الجناة من هذا النوع بنية جسدية ضعيفة من الآباء المدمنين على الكحول غالبًا، ويميلون إلى أعمال العنف؛ مثل: القتل، والاغتصاب.

كما ثبت أن فئة المجرم الهستيري مرنة؛ لأن أعضاءها قد تظهر عليهم علامات قليلة للمرض العقلي، ويكونون خالين من التشنجات، لكن شخصياتهم تتميز بـ"الأنانية،

www.daralthaqafa.com

والانشغال الذاتي، مما يؤدي إلى الرغبة في الفضيحة والاهتمام العام". ومعظم الهستيريين من الإناث.

في حين أن أعضاء الفئة الثالثة و الأخيرة من المجرمين المجانين (الماتويديين)، هم من الذكور بشكل ثابت، وقد وضع لومبروزو مصطلح (ماتويد)؛ للإشارة إلى مدعي النبوة، والثوار العصاميين، الذين ارتقوا من الطبقات الدنيا نحو إطلاق فِكَرٍ مثاليةٍ. كما يشير لومبروزو إلى كتابات الماتوديين الضخمة كعلامة على جنونهم؛ لأن هذه الكتب تجمع بين مفاهيم "معبرة جيدًا، وحتى سامية"، مع مفاهيم أخرى "عادية، ووضيعة، ومتناقضة".

ثم أخيرًا: تقدم الطبعة الرابعة، من الرجل المجرم، فئة جديدة رئيسة، هي: المجرم العرضي، ففي مشروع لومبروزو، يشمل المجرم العرضي أربع مجموعات فرعية، هي: المجرم الزائف، الذي يتميز بقليل من التشوهات إن وجدت،

والمجرم العرضي، الذي يظهر ما يكفي من الشذوذات؛ ليكون عرضة للجريمة،

والمجرم المعتاد ومكرر الجريمة، الذي يبدأ سيرته كمجرم زائف، لكنه يصل إلى انحراف المجرمين بالميلاد؛ من خلال خرق القانون بشكل متكرر،

والمجرم الكامن، الذي يوجه غرائزه الخبيثة إلى مسارات بديلة.

ففي الأحوال جميعها، يخالف المجرم العرضي القانون؛ لأن الضغوط أو الإغراءات البيئية تتغلب على صلاحه الطبيعي في النهاية، ومع ذلك، لم يشعر لومبروزو أبدًا بالراحة مع فئة المجرم العرضي، حيث تذمر في الطبعة الرابعة من أنه: "لا يقدم نوعًا متجانسًا بالطريقة نفسها، التي يقدم بها المجرمون بالميلاد، والمجرمون بالعاطفة، بل على عكس ذلك، تتكون الفئة من مجموعات متباينة".

ثم إنه في الطبعة الأخيرة، من الرجل المجرم، يعترف لومبروزو بمجموعة من الأنواع المنحرفة، غير المجرم بالميلاد[33]. وهذه الفئات التي تكاثرت عبر المجلدات الخمسة من كتاب: الرجل المجرم، تزيد من وزن العوامل الاجتماعية، في تفسير لومبروزو

www.daralthaqafa.com

لأسباب الجريمة، ولكن بسبب الشهرة السيئة لمفهوم المجرم بالميلاد، نادرًا ما يُنسب إلى لومبروزو الاعتراف بالعوامل البيئية؛ بِعَدِّها ذات أهمية لمسببات الانحراف، مع أنه في الطبعة الأولى من الرجل المجرم، ناقش في أنه: "لا توجد جريمة غير متجذرة في أسباب متعددة". ومن خلال الطبعة الأخيرة، عَدَّدَ هذه العوامل الاجتماعية بتفصيل كبير[34]. وعلى الرغم من تركيزه المتزايد على الأسباب الاجتماعية للجريمة، إلا أن لومبروزو في التحليل النهائي قادر على الاستمرار في إنكار حرية الاختيار؛ من خلال تصور القوى البيئية والبيولوجية كمحددات متساوية.

تطبيقات عملية

على مدى الطبعات الخمس من كتاب: الرجل المجرم، عمل لومبروزو باستمرار على توسيع أقسامه المتعلقة بالسياسة العامة، فبعد الوحدة عام 1861، عندما ناقش الإيطاليون شكل نظام العدالة الجنائية الجديد، كان لومبروزو حريصًا على تقديم توصيات مختصة بشكل متزايد؛ لإصلاح الشرطة، والمحاكم، والسجون. وفي الأقسام المتزايدة باستمرار، عن منع الجريمة، والمعاقبة عليها، أظهر لومبروزو كيف انبثقت هذه التوصيات منطقيًّا من مبادئ نظريته الإجرامية العامة، كما اعتمد على معرفته الواسعة بالإصلاحات القانونية في الدول الأخرى، والتي حث الحكومة الإيطالية على الكثير منها.

وعلى الرغم من أن نصيحته العملية قد تزايد اختصاصها على مر الأعوام، إلا أن فلسفة لومبروزو الأساسية للعقاب لم تتغير أبدًا، فعلى عكس مبادئ (بيكاريا) التنويرية، نصح بأن تكون العقوبة مناسبة للمجرمين، وليس للجرائم. ورفض صراحة مبدأ المسؤولية الأخلاقية؛ بحجة أن المجرمين تصرفوا مجبرين، إما بسبب انحلالهم الجسدي والنفسي الفطري، وإما بسبب البيئة الاجتماعية. ومع ذلك، ولو لم يختر المجرمون خرق القانون بإرادتهم، فلا يزال للمجتمع الحق في معاقبتهم دفاعًا عن نفسه.

www.daralthaqafa.com

فلا يختلف مبدأ الدفاع الاجتماعي هذا عن اعتقاد بيكاريا، في أن الهدف الرئيس للعقاب هو: منع المجرمين من تهديد أكبر للمجتمع، لكن يخالف لومبروزو بيكاريا في طريقة تحديد العقوبات المناسبة، فبالنسبة إلى لومبروزو، من غير المنطقي: وضع مقياس متناسب للجرائم والعقوبات؛ لأن المجرمين بالميلاد والمجرمين العرضيين يسرقون، بل ويقتلون، ولذلك: يجب أن يسمح القانون للقضاة في سلطة تقديرية واسعة؛ لتقييم درجة الخطورة التي يمثلها كل متهم؛ كأساس لإصدار العقوبة المناسبة.

كما بدلًا من المقياس الكلاسيكي للجرائم والعقوبات، ناقش لومبروزو العلاقة بين أنواع المجرمين، وبين العقوبات، ورأى أنه يمكن منع الجرائم العرضية، فأوصت الطبعات الخمس من الرجل المجرم بمجموعة متزايدة من الإصلاحات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، المصممة للقضاء على أسباب الجريمة، وتشمل هذه التدابير الوقائية، التي أطلق عليها: بدائل العقوبات (*sostitutivi penali*)" تدابير تقنية؛ مثل: إضاءة الشوارع، وأنظمة الإنذار لإعاقة السرقة والسطو، وقوانين جديدة؛ مثل: تشريع الطلاق؛ للقضاء على العنف المنزلي والقتل الزوجي، والإصلاحات الاجتماعية الكبرى؛ مثل: إعادة توزيع الأراضي؛ للتخفيف من الفقر المدقع للفلاحين الجنوبيين.

ولكن أظهر لومبروزو تناقضًا مفاجئًا تجاه انتشار التعليم العام و"الحضارة"؛ أي: التمدن والتصنيع، فقد عارض وجود المدارس في السجون؛ لاعتقاده أن التعليم الأساسي سيساعد المجرمين في إتقان مهنهم، على الرغم من أنه اعترف على مضض، أن التوسع في محو الأمية بين عامة السكان، من شأنه: أن يقلل من الجريمة على المدى الطويل.

كما تبين الشك في مناقشة لومبروزو للحضارة، فبينما اعترف بأن العصرنة قد قللت من مستويات العنف، وعزز التقدم الأخلاقي والفكري والسياسي، فإن التحول الصناعي شجع على إدمان الكحول بين الطبقات العاملة، وإن التمدن شجع على تشكيل العصابات الإجرامية، وفضلًا عن ذلك، أدت الحضارة إلى الاحتيال، وإلى

www.daralthaqafa.com

أنواع جديدة أخرى من جرائم الأموال، التي حلت محل المزيد من الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص.

ولأن الحضارة لن تقضي على الجريمة أبدًا، فقد وجه لومبروزو اهتمامه إلى السجون، حتى أثناء البحث عن بدائل للسجن للمجرمين العرضيين والعاطفيين. وفي حين دافعت المدرسة الكلاسيكية عن السجون؛ كبديل إنساني وفعال للعقاب البدني، اعتقد الوضعيون أن السجن يفسد المجرمين الذين يمكن إصلاحهم؛ وذلك لاختلاطهم بالمجرمين بالفطرة. وعندما لا يكون هنالك مفر من وجود السجون، فيجب تصميمها على غرار ما يسمى: نظام بنسلفانيا، أو: النظام الخلوي؛ بأن يعيش النزلاء، ويعملون في زنزانات منفصلة؛ لمنع الاتصال والتلوث الأخلاقي. ويفضل السجن عن الغرامات أو خدمة المجتمع، إذا كان المتهم فقيرًا.

وبالنسبة إلى المجرمين غير الخطرين، نصح لومبروزو القضاة باعتماد الإقامة الجبرية، أو مراقبة الشرطة، أو مجرد التوبيخ القضائي. كما كان متحمسًا في شأن العقوبة مع وقف التنفيذ، والإفراج المشروط، وهما بديلان حديثان للسجن، كانا رائدين في فرنسا والولايات المتحدة، وقد سعى جادًّا نحو إدخالهما في القانون الجنائي الإيطالي.

فيما بالنسبة إلى المجرمين الخطرين، فقد أوصى لومبروزو بمجموعة من المؤسسات المختصة، فيستحق المجرمون بالميلاد والمجرمون المعتادون الحبس الدائم باسم الدفاع الاجتماعي، ويجب إرسالهم إلى سجون خاصة بالأشخاص الذين لا يمكن إصلاحهم. كما يجب فصل المجرمين المجانين عن المجتمع مدى الحياة أيضًا، ولكن في المصحات النفسية الجنائية الخاصة (*manicomi criminali*)، حيث يتلقون العلاج النفسي. ولأنه مدافع قوي عن المصحات النفسية الجنائية كبديل إنساني للسجن، تصور لومبروزو إنشاء مؤسسات عقلية أيضًا، مختصة للفئات المختلفة؛ مثل: المجرمين المدمنين على الكحول، أو المجرمين المصابين بالصرع.

www.daralthaqafa.com

وعلى الرغم من رفضه عقوبة الإعدام، في الطبعة الأولى، من الرجل المجرم، فقد صار لومبروزو مدافعًا عنه تدرجًا، في حالة المجرمين بالميلاد، الذين ارتكبوا مجموعة من الجرائم الدموية، وفي حالة أعضاء العصابات المنظمة، الذين هددوا أمن الدولة. وبذلك: تحدى الإجماع العام في إيطاليا، الذي ألغى عقوبة الإعدام في قانون العقوبات (قانون زاناردیلي) لعام 1889. ورد على خصومه في الطبعة الخامسة من الرجل المجرم، بأن "ادعاء أن عقوبة الإعدام تتعارض مع قوانين الطبيعة هو: ادعاء، يتجاهل حقيقة أن التقدم في عالم الحيوان، ومن ثم: العالم البشري، يقوم على أساس الصراع من أجل البقاء، التي تتضمن مذابح شنيعة"، فالمجتمع ليس بحاجة إلى الشفقة على المجرمين بالميلاد – المبرمجين للأذى–، فهم "نسخ رجعية ليس من الرجال الهمجيين فقط، ولكن لأكثر الحيوانات آكلة اللحوم والقوارض شراسة أيضًا". إن عقوبة الإعدام، من وجهة النظر الاجتماعية الداروينية، من شأنها: أن تسرّع الانتقاء الطبيعي، وتخلص المجتمع من غير الكفؤ.

سياقات الرجل المجرم: الجنس، والعرق، والعمر، والطبقة

خلال الطبعات الخمس من الرجل المجرم، يولي لومبروزو اهتمامًا متزايدًا للمجموعات، التي بدأت تثير القلق، أواخر القرن التاسع عشر، في أوروبا وأمريكا: النساء، والإيطاليون الجنوبيون، والأفارقة، وغيرهم من "السلالات الدنيا"، والشباب، والطبقات الدنيا، التي تمثل قطاع الطرق في الريف، والثوار المدنيين، حيث تزامن ظهور هذه المجموعات كفئات مستهدفة للدراسة من علماء الاجتماع، وانضباط من الدولة، مع التغيرات الاقتصادية والسياسية الجذرية، التي رافقت التحول الصناعي، والتحضر، والديموقراطية.

وتدخل صفحات الرجل المجرم في نقاشات كبيرة غالبًا خارج نطاق العدالة الجنائية، حول قضايا مثل: حقوق المرأة في الزواج، والتخلف المزعوم للإيطاليين الجنوبيين، والتعليم الملائم للأطفال، والمطالب السياسية للطبقة العاملة الصناعية الجديدة.

www.daralthaqafa.com

كما تتقاطع مناقشات لومبروزو عن الجنس والعرق والعمر والطبقة الاجتماعية، وتعقد التصنيف الرسمي للمجرمين المستند على الخطورة، فتكشف معالجة لومبروزو لمتغيرات الجنس والعرق والطبقة والعمر، عن اتجاهين متناقضين في كتاب: الرجل المجرم، فمن ناحية، يدمج لومبروزو التحيزات الشعبية الدارجة في حينه في علمه، بينما من ناحية أخرى، يأخذ الاستقلالية وغير الشعبوية في بعض القضايا مثيرة الجدل.

وعلى الرغم من دفاع لومبروزو الدائم عن تصريحاته غير المتوقعة في شأن السياسة العامة – مثل: دعمه الطلاق، أو: معارضة الاستعمار –؛ بِعَدِّها نتائج منطقية لنظريته الأنثروبولوجيا الجنائية، فقد تشكلت من خلال سيرته الشخصية أيضًا، فلأنه أبٌ لابنتين متعلمتين جيدًا، كانتا شخصيتين عامتين، كان لومبروزو على دراية بالمناظرات في الحركة النسوية الإيطالية، وربما تأثر فيها، وربما عززت يهوديته موقفه الإيجابي تجاه الاختلاط العرقي، وهو موقف، يتعارض مع موقف العديد من العنصريين "العلميين" الآخرين، أواخر القرن التاسع عشر.

وكطبيب وليبرالي (وصار اشتراكيًّا فيما بعد)، دعم لومبروزو التغيير السياسي التقدمي، الذي من شأنه: أن يخفف من فقر الفلاحين والعمال الحضريين. لقد ساعدت وجهات النظر الشخصية هذه في تلطيف التعاليم القاسية لنظرية لومبروزو، في أن النساء، وغير البيض، والفقراء، والأطفال، أقل جسديًّا ونفسيًّا وأخلاقيًّا، من الرجال البيض.

فأما من حيث سياق الجنس: على عكس علماء الجريمة الآخرين في عصره، أدرك لومبروزو أهمية الجنس في فهم مسببات الجريمة، فأدرج، في الطبعة الأولى من الرجل المجرم، قسمًا قصيرًا عن النساء المجرمات، أخذ معظم بياناته عن جرائم الإناث في الطبعات الأولى، من دراسة (Alexandre Parent-Duchatelet) البارزة، عن المومسات في باريس[35]. وعلى الرغم من ندرة الأدلة، فقد أعلن لومبروزو رؤيته

www.daralthaqafa.com

الأساسية حول إجرام الإناث، في الطبعة الأولى من الرجل المجرم، أن الدعارة تمثل الشكل النموذجي لجرائم الإناث.

ساعدت هذه الفكرة لومبروزو في حل التناقض النظري، الذي ظهر عندما جمع الإحصائيات، ووجد أن معدلات الجريمة بين النساء كانت أقل من الرجال دائمًا، وبدت ندرة خرق النساء للقانون غير متوافقة مع افتراض لومبروزو لدونية الإناث. وقد حل هذا التناقض من خلال قول: إن السمة الأساسية للنساء، اللاتي لديهن الارتداد، هي: الدافع الجنسي المبالغ فيه، والذي يقودهن إلى الدعارة في كثير من الأحيان، أكثر من جرائم الذكور التقليدية، مثل: القتل والسرقة. وهكذا أعاد لومبروزو تعريف الدعارة – المشروعة في إيطاليا ومعظم أوروبا في القرن التاسع عشر – كجريمة نموذجية للمرأة، فيما أشار إليه بالمجتمعات الهمجية.

كما عام 1893، وسّع لومبروزو تحليله إجرام الإناث في كتاب منفصل، بعنوان: (المرأة المجرمة، والمومس، والمرأة العادية)، ووجب الاعتراف بلومبروزو كواحد من علماء الإجرام القلائل، قبل ظهور علم الجريمة النسوي، ففي سبعينات القرن الماضي جمع بيانات مكثفة عن جرائم الإناث، وأخذ الجنس على محمل الجد كفئة من التحليل، ومع ذلك: فقد مثلت نظريته الناتجة انتكاسة لمناصري حقوق المرأة، في القرن التاسع عشر؛ لأنها أكدت دونية كلٍّ من النساء العاديات والمجرمات، عادًّا كلا النوعين لَهُنَّ جماجم أصغر، وأدمغة أخف، وأجساد أقصر، وعضلات أقل، وحساسية أضعف من نظرائهن الذكور. ووفقًا لما قاله لومبروزو، فإن ما يسمى: النساء العاديات، هن مثل الأطفال، فسيظلن عاطفيات دائمًا، وواهنات أخلاقيًّا مقارنة بالرجال العاديين[36]. غريزة الأمومة فقط هي ما أنقذ النساء العاديات من الإجرام؛ لأن هذه الغريزة وازنت صفاتهن النفسية الفطرية؛ كالغرور، والكذب، والقسوة.

ثم إنه على الرغم من تصريحاته القاتمة عن دونية الإناث، أعرب لومبروزو عن تعاطفه مع معظم المجرمات، فهو يعتقد أن معظم النساء الضعيفات وقابلات التأثر،

www.daralthaqafa.com

يرتكبن أفعالًا غير قانونية، أو غير أخلاقية؛ بسبب ظروف اجتماعية غير مواتية، أو بسبب ضغط من الأزواج أو العشاق، فبالنسبة إلى لومبروزو، لا تشكل المجرمات والعاهرات العرضيات خطرًا كبيرًا على المجتمع، ومن ثم: يستحقن عقوبة خفيفة. ودعا إلى تشريع الطلاق – وهو موقف متطرف أواخر القرن التاسع عشر في إيطاليا –؛ للسماح للمرأة في الهروب من الأزواج المسيئين أو المجرمين؛ من دون اللجوء إلى القتل المنزلي. وفي تحدٍّ آخرَ للمواقف التقليدية في عصره، حدد لومبروزو عقوبة خفيفة للنساء المدانات بقتل الأطفال والإجهاض؛ لأن سلوكهن الإجرامي لم ينتج عن الميول الوراثية الفطرية، ولكن من وصمة العار الاجتماعية المرتبطة بأمومة غير المتزوجة. ومن ثم: فقد عَدَّ أقلية من المجرمات فقط مجرمات بالميلاد، ولكن بالنسبة إلى أولئك النساء اللواتي كن "وحوشًا حقيقية"، فقد طالب لومبروزو بالسجن الدائم لهن[37].

وأما من حيث سياق العرق: فالعرق محبوك بشكل متكامل في نظرية لومبروزو عن الارتداد، والتي تساوي الرجل الأبيض بالحضارة، والرجل الأسود والبني والأصفر بمجتمعات "بدائية" أو "همجية"، ففي عمله السابق بعنوان: (الرجل الأبيض والرجل الملون *L'uomo bianco e l'uomo di colore*)، كان لومبروزو قد خلص إلى أنه: "يجب أن نقول: إن هناك عرقين بشكل عام: الأبيض والملون"[38]. وقد قارنت الطبعتان الأوليان من الرجل المجرم بشكل عشوائي سمات المجرمين مع "الهمجيين"، الذي يُعِدُّهُمْ لومبروزو نماذج للمراحل السابقة من التطور. ثم في الطبعة الثالثة، عزز لومبروزو أساسه الداروينى بوضوح أكثر؛ من خلال إضافة قسم تمهيدي طويل عن السلوك الإجرامي بين النباتات، والحيوانات، والشعوب البدائية، فناقش حول أن العنف والجنس غير المنضبطين، اللذين جاءا بشكل طبيعي للكائنات الحية في مراحل النمو المبكرة، قد أفسحا المجال تدرجًا للمفاهيم الحديثة للعدالة والزواج الأحادي. وكان ادعاء لومبروزو أن الشعوب غير الأوروبية أدنى منزلة من الرجال البيض أمرًا مألوفًا

www.daralthaqafa.com

في المجتمع في عصره، لكن معادلاته المنهجية للمجرمين بالميلاد والهمجيين، أدخلت العنصرية في مجال علم الإجرام الجديد.

كما إنه عندما ناقش لومبروزو علاقة العرق بالقضايا الحالية في عصره، بدا أقل اهتمامًا بسكان الأراضي غير الغربية، من اهتمامه بسكان الجنوب الإيطالي. ومثل غيره من الإيطاليين الشماليين، كان لومبروزو في حيرة من أمره؛ بسبب ما يسمى: المسألة الجنوبية، وهو: الجدل حول التخلف المفترض لجنوب إيطاليا، الذي يتضمن جزيرتي: صقلية وسردينيا، فلأنه موطن قطاع الطرق والتنظيمات الإجرامية مثل: المافيا والكامورا، بدا الجنوب عنيفًا، وخاليًا من قانون المراقبين الشماليين. فكان أن قدم لومبروزو إجابة مركبة عن المسألة الجنوبية، تضمنت نقدًا اجتماعيًّا للنخب الجنوبية؛ لاحتكارها ملكية الأراضي، وإدانة سياسية للحكومة الوطنية؛ لفشلها في تخفيف الفقر والمرض والأمية في الجنوب. وعلى الرغم من اعتراف لومبروزو بهذه العوائق البيئية للازدهار في الجنوب، إلا أنه ركّز على أهمية العرق في تفسير المعدلات المرتفعة للجرائم العنيفة. وبعد أن تم غزو الجنوب على مر القرون من عدد من الشعوب الأجنبية – بمن فيهم: عرب شمال أفريقيا –، كان يسكن الجنوب شعب مختلط عرقًا، يتشاركون، من وجهة نظر لومبروزو، في الميل نحو القتل، مع أسلافهم من غير البيض.

وقد قدم لومبروزو تحليلًا أكثر دقة لسلوك اليهود، فأدرج مجموعة أخرى في كتابته عن العرق. ويفسر أصله اليهودي جزئيًّا رفضه وصف السلوك اليهودي بعبارات بيولوجية بسيطة، بدلًا من مصطلحات اجتماعية أكثر تعقيدًا. وإدراكًا منه للتصاعد المخيف، خلال العقود الأخيرة، من القرن التاسع عشر، لمعاداة السامية العرقية شمال أوروبا، جادل لومبروزو في أن أنماط السلوك اليهودي مستمدة من الإرث التاريخي للاضطهاد، وليس من الخصائص العرقية الفطرية. وزعم أن اليهود لديهم معدلات اعتقال عالية؛ بسبب جرائم الأموال؛ مثل: الاحتيال، واستلام البضائع المسروقة؛ لأن

www.daralthaqafa.com

التشريعات في معظم الدول الأوروبية تمنعهم تقليديًّا من ممارسة أي مهن إلى جانب البيع أو التجارة. وكدليل على أن الارتداد ليس جوهريًّا في الشخصية اليهودية، يستشهد لومبروزو بالحركة السريعة لليهود إلى مناصب مهمة في السياسة والجيش والأوساط الأكاديمية؛ بمجرد حصولهم على الحقوق المدنية نفسها مثل زملائهم النصارى.

وقد دعا لومبروزو إلى عقاب قاس لأعضاء تلك الأعراق، التي عَدَّها ارتدادية (رجعية).

صحيح أن لومبروزو اعترف بأن بعض الشعوب التي يُفترض أنها بدائية، كانت أكثر صدقًا من غيرها، وأن الفقر حوَّل العديد من الإيطاليين الجنوبيين العاديين، إلى مجرمين عرضيين، ولكن بالنسبة إلى الجزء الأكبر، عَدَّ لومبروزو العرق محددًا بيولوجيًّا للسلوك الارتدادي، وفي حالة الجريمة: للعنف والقسوة أيضًا، فعلى سبيل المثال، في الطبعة الثانية، من الرجل المجرم، يصف الغجر بأنهم: "عرق إجرامي كامل، بكل ما فيه من عواطف ورذائل"، وتتضمن ميولهم الارتدادية حتى أكل لحوم البشر، ومن ثم: فإن مجرمي الأعراق الملونة يستحقون عقوبة قاسية، بما في ذلك على الأقل في حالة المافيا، وأعضاء المنظمات الإجرامية الإيطالية الآخرين، هي: عقوبة الإعدام.

وأما من حيث سياق العمر: فيُعَدُّ متغير العمر محوريًّا في الأنثروبولوجيا الجنائية، التي وضعها لومبروزو من ناحيتين،

فهو أولًا: يصف الأطفال جميعًا بأنهم مجرمون؛ لأنهم يظهرون سمات نفسية ارتدادية؛ مثل: الغرور، والقسوة، والكسل، والتقلب، والكذب. وبالنسبة إلى لومبروزو، يمكن تفسير هذا السلوك بالمبدأ العلمي للقرن التاسع عشر، المنسوب إلى آرنست هيغل، وهو: أن "علم الوجود يعيد إنتاج السلالة"، مما يعني: أن حياة كل فرد تلخص تنامي الأنواع، وهكذا، فإن الجنين يعادل مرحلة النمو الحيواني والطفولة للإنسان البدائي.

www.daralthaqafa.com

أما في سن البلوغ، وفقًا لما ذكره لومبروزو، فيفقد معظم الأطفال صفاتهم الإجرامية، وينضجون إلى مرحلة البلوغ الطبيعي، تمامًا كما يتحول الهمجيون إلى رجال متحضرين. ولكن على الرغم من هذا الاحتمال المتفائل عمومًا، فإن الطفولة لدى لومبروزو تشكل تذكيرًا مستمرًّا بأن الماضي الارتدادي للرجل مشفر بشدة في علمي: الأحياء و النفس لكل فرد.

وهو ثانيًا: يُعِدُّ الجنوح المبكر عند الأطفال بمثابة تحذير لقوة الوراثة السيئة، فقد ملأ لومبروزو كتابه: الرجل المجرم بدراسات حالة عن مجرمين صغار بالميلاد، كان آباؤهم ارتداديين، أو مصابين بجنون أخلاقي، أو بالصرع، أو من الذين مروا بأمراض موهنة؛ مثل: إدمان الكحول، أو: مرض الزهري، أو: السل. وإثباتًا للشذوذ البيولوجي والنفسي للمجرمين بالميلاد منذ صغرهم، لم ينضج هؤلاء الأطفال أبدًا ليصيروا بالغين عاديين. كان هذا هو: مصير العديد من حَفَدَةِ السكير ماكس جوك، وهي عائلة أمريكية، اهتم لومبروزو بها، تضمنت سبعة وسبعين مجرمًا، وثماني وعشرين ومئة عاهرة، على مدى سبعة أجيال.

لقد دعا لومبروزو إلى الوقاية بدلًا من العقاب على جرائم الطفولة؛ لأن قانون الاستعادة يؤكد أن معظم الأطفال يمرون بمرحلة مؤقتة من الإجرام العرضي فقط؛ إذ سوف ينضجون إلى مرحلة البلوغ الصحي إذا وجههم الوالدان المحبان، ولكن المتشددان أخلاقيًّا. وأما بالنسبة إلى الأيتام، فقد أوصى لومبروزو بالحضانة أو الإصلاحيات الإنسانية، على الرغم من اعتقاده العام بأن مؤسسات السجن تنشر الرذيلة بدلًا من اجتثاثها، ومع ذلك: فقد ثبت أن الاعتقال هو: الرد المناسب على الأحداث الجانحين بالميلاد، الذين يشكلون خطرًا على المجتمع، حتى قبل ارتكاب الجرائم؛ إذ يمكن للشرطة، والمعلمين، وحتى الآباء، التعاون مع علماء الأنثروبولوجيا الجنائية في تحديد الشباب المتوحش، وفصلهم عن قرنائهم العاديين؛ بمجرد تدريبهم على اكتشاف الشذوذين: البيولوجي والجسدي.

www.daralthaqafa.com

وأما من حيث سياق الطبقة: فإنه قد مر تيار إنساني في علم الجريمة للومبروزو منذ بدايته، فقد عين لومبروزو في مقاطعة كالابريا، جنوب إيطاليا، طبيبًا عسكريًّا عندما كان شابًّا، وقد صُدم بسبب فقر الفلاحين المدقع، الذي أدى إلى سوء التغذية، والمرض، والجنون في بعض الأحيان. وعندما عاد إلى الشمال، قدم تعاطفه مع فقراء الطبقات العاملة في المناطق الحضرية. وفي كتابه: الرجل المجرم، اتهم كلًّا من الطبقة الأرستقراطية الجنوبية باحتكار ملكية الأراضي، والصناعيين الشماليين باستغلال عمال المصانع. وقد ساعد اتصال لومبروزو الوثيق بالفقراء كطبيب وباحث، في تفسير اعتناقه الاشتراكية في نهاية حياته.

ومع ذلك، في الرجل المجرم، انتقد لومبروزو بشدة المتمردين والثوار، الذين طالبوا بتغيير اجتماعي عنيف، حيث كان العديد من الأشخاص موضوع دراسته المبكرة من قطاع الطرق، وهم مجموعة متهمة من الدولة الإيطالية الجديدة بالتمرد السياسي، فدحض عبر بحثه التاريخي هذا الاتهام، فمعظم أعمال اللصوصية – مثل: سرقة الأغنياء، أو: قتل الجنود ومسؤولي الدولة – لم تكن مستوحاة من الآيديولوجية السياسية اليسارية، ولكن من العزم اليائس للحفاظ على الحكم الذاتي الإقليمي. ومثل العديد من الجنوبيين، كان قطاع الطرق ينظرون إلى الحكومة الجديدة في العاصمة روما على أنها قوة إمبريالية، كان مسؤولوها، ومعظمهم من الشمال، مصممين على السيطرة على الثروة والمواطنين في الجنوب، وبصفته وطنيًّا ومؤمنًا قويًّا بالوحدة الإيطالية، ردد لومبروزو السياسة الوطنية؛ من خلال مساواة قطاع الطرق بالخونة، وزعم أن قطاع الطرق أظهروا شذوذًا نموذجيًّا للهمجية، كما شجب طبيعة الارتداد لجرائمهم العنيفة.

لقد قدم لومبروزو تحليلًا أكثر دقة للثوار الحضريين، الذين على عكس قطاع الطرق، كانوا في الغالب متعلمين من الطبقة الوسطى، في القرن التاسع عشر، وإن خبرته السياسية، في البداية: مؤيدًا ليبراليًّا لوحدة إيطاليا، ومن ثم: اشتراكيًّا، قد جعلته يجل

www.daralthaqafa.com

دور القادة الشجعان في الإطاحة بالنظام الملكي المطلق، وتعزيز حقبة جديدة من السيادة الشعبية، ففي كتابه: الرجل المجرم، نقل لومبروزو معظم المجرمين السياسيين إلى فئة مجرمي العاطفة؛ لأنه كان يعتقد أن عنفهم متجذر في المثالية بدلًا من الارتداد. وبدا أن معظم المجرمين السياسيين، المباركين بسمات الطبيعة السارة التي لا يشوبها شذوذ، يشكلون خطرًا اجتماعيًّا ضئيلًا. ولكن لم يمتد إعجاب لومبروزو إلى (الماتوديين)، الذين عَدَّهُمْ غير متوازنين حقًّا، بل ومجانين في حملاتهم الصليبية السياسية.

الإجرام والتصوير

بينما تستند سمعة لومبروزو إلى عمله العلمي، كان له جانب إنساني أيضًا، فقد كان مفتونًا بفنون المجرمين وحرفهم، وكتاباتهم اليدوية، وأوشامهم، وكتاباتهم على الجدران، ولهجاتهم، وأغانيهم، ونحوتهم، وأشعارهم، وفولكلورهم، فبذل لومبروزو قصارى جهده لجمع وحفظ وتفسير العمل الإبداعي للمجرمين، ويبدو أنه كان أول شخص يثمن هذه المواد، ويجمعها بشكل منهجي، فقد كانت جهوده وثيقة الصلة بتوضيح نظريته الإجرامية بصريًّا في المخططات، والرسومات، والرسوم البيانية، والخرائط، والصور الفوتوغرافية، كما إنه في متحف الأنثروبولوجيا الجنائية الذي أسسه في تورينو فضلًا عن ذلك، نجده قد عرض صورًا للحياة الإجرامية والثقافة؛ من خلال روايات نصوصه، فإحداها قصةٌ رئيسةٌ كبيرةٌ (قصة التطور نفسها؛ إذ شكل المجرمون بالميلاد فصلًا تعليميًّا، وإن كان قاتمًا)، ونوادر أخرى قصيرة (حكاياته المختصرة، التي لا تعد ولا تحصى عن الجرائم الفردية والمجرمين). ويرجع نجاح الأنثروبولوجيا الجنائية إلى حدٍّ كبيرٍ إلى قدرة لومبروزو على تجسيد نظريته بصريًّا، وترسيخها بشكل سردي[39].

فمن جهة الفن: في كل طبعة متتالية من الرجل المجرم، لم يقتصر الأمر على إحضار صور لم تُنشر سابقًا فحسب، بل جلب أنواعًا جديدة من الصور أيضًا

www.daralthaqafa.com

(عينات خط اليد في الطبعة الثانية، على سبيل المثال، وصور قبل وبعد للمجرمين، الذين تم إصلاحهم، في الطبعة الخامسة)، وأساليب مبتكرة في التمثيل (مخططات الوراثة في الطبعة الثانية، والرسوم البيانية الشريطية في الطبعة الثالثة، وخرائط الجريمة في الطبعة الرابعة)[40]، حيث تبدأ الطبعة الأولى من كتاب: الرجل المجرم (عام 1876) بما يأتي: أربعة رسوم توضيحية: اثنان من وجوه المجرمين، وواحد من الوشم، وواحد من فن السجناء[41]. وحيث تتضمن الطبعة الثانية (1878) الرسوم التوضيحية الأربعة نفسها، وتضيف عشرة رسوم جديدة. وحيث تحتوي الطبعة الثالثة (1884) خمسة وعشرين رسمًا إيضاحيًّا، والطبعة الرابعة (1889)، وهي: عمل مكون من مجلدين، فيهما خمسة وستون. فيما تكرس الطبعة الخامسة الأخيرة (1896–1897) مجلدها الأخير بأكمله، الأطلس، للأدلة المرئية للأنثروبولوجيا الجنائية، الذي يُعِدُّهُ لومبروزو "الجزء الأكثر أهمية" من الرجل المجرم، ويحتوي مئة وواحدًا وعشرين رسمًا توضيحيًّا[42].

وعلى امتداد العقدين، اللذين صدرت فيهما الطبعات الخمس، نادرًا ما يتجاهل لومبروزو صورة من مخزونه، وبدلًا من ذلك، قام بتكديس طبقات جديدة في مجموعته المتصاعدة. ومع أن هنالك نصوصًا أخرى أيضًا من مطلع القرن، عن الجريمة والطب الشرعي، تحمل الكثير من الرسوم التوضيحية، لكن لا شيء في التاريخ الإجرامي يضاهي الثراء البصري للطبعات: الثالثة، والرابعة، والخامسة، من كتاب: الرجل المجرم. كما لاحظت ابنته جينا (بإزعاج، لا كما يأمل المرء)، أن لومبروزو كان "مولودًا جامعًا"[43].

وقد تسربت متعة لومبروزو بصور الإجرام إلى بعض كتبه الأخرى أيضًا، حيث تضمن كتاب: (المرأة المجرمة) ثمانية رسوم توضيحية في صفحات كاملة، وثمانية عشر أخرى داخل النص[44]. وتظهر الصور المتعلقة بالجريمة أيضًا في كتابه: (سجن Palimpsests)، مجموعة لومبروزو لعام 1888 لنثر السجناء، والصور

www.daralthaqafa.com

التوضيحية (الرسومات المشروحة)، والوشوم، وكتابات الجدران[45]. كما يمكن العثور على مثال آخر لتوضيحات لومبروزو السخية في كتابه: (الرجل الأبيض والرجل الملون)، الذي على الرغم من أنه يصور أساسًا بغرابة الأفارقة والأستراليين و"الشرقيين"، إلا أنه يتضمن العديد من الصور المتعلقة بعلم الإجرام أيضًا: جماجم لإثبات تفوُّق الجمجمة الأوروبية؛ وامرأة أفريقية (من قبيلة بوشمن)، عارية، مع ردف شاذ؛ وجمجمة اللص فيليلا، ذلك الجزء من الجسم، الذي ادعى لومبروزو أنه ألهمه في البداية؛ لإدراك أن المجرمين متخلفون تطوريًّا، ويتسمون بالشذوذ. فتكمل هذه الكتب كتاب: الرجل المجرم، وتتابع بصريًّا جوانب من حجته.

ولكن على الرغم من وضوح أن لومبروزو كان يستمتع بصور وفنون السجناء، وصناعاتهم اليدوية، وأجزاء أجسامهم، فقد شعر أنه يتعين عليه تبرير اهتمامه بالمصطلحات العلمية، وهكذا، يلاحظ في الصور "ميل المجرمين نحو التعبير عن فِكَرِهِمْ؛ من خلال الرسومات حقيقة غريبة من الارتداد"[46]، فعلى جمجمة أنثى، كتب لومبروزو أنها تنتمي إلى "عاهرة من نابولي، الجبهة منحدرة، الفكَّان بارزان، نوع الوجه زنجي، فكوك قوية"[47]. وتوضح الصورة مقدمة رجال يعيدون تمثيل جريمتهم (مستنسخة في هذا الكتاب بالشكل رقم 9 "الغرور المذهل" للمجرمين[48]. ومن المفارقات: أن مثل هذه التعليقات تقوض تجربة لومبروزو؛ من خلال الإشارة إلى الحاجة إلى تفسير إبداعي، فلا يُظهر الرسم الموجود على إبريق الماء الخاص بالسجين (الشكل 22) مجرد رجل جالس في خزانة؛ بل هو: اعتراف السجين بالذنب لقتل جاره أيضًا، ووضع جسده في الخزانة. وبالمثل، فإن الزهور الموشومة (الشكل 47) تعني أكثر مما يبدو، بالنسبة إلى هذا الشكل، لتقارير لومبروزو، أنها موجودة بشكل شائع على الشاذين جنسيًّا[49]. وعلى مستوى أكثر تجريدًا، فإن الصور تدل على الارتداد، والغرور، والقرابة مع الهمجيين. بعد ذلك، تربط عروض لومبروزو بين العلم وبين الفن، وتعمل في الوقت نفسه على المستويين: المرئي والسرد، وتغمر

www.daralthaqafa.com

الأشياء بالمعاني الرمزية. ونظرًا إلى أن العروض تتطلب شرحًا، فإنها تستدعي وجود علم الإجرام وعلماء الجريمة أيضًا[50].

ولقد لعب الإبداع دورًا آخر في إنتاج الرسوم التوضيحية للومبروزو، فعلى الرغم من عدم وجود دليل على أن لومبروزو قد ضلل المشاهدين عن عمد، إلا أن تصوراته المسبقة حول كيفية ظهور المجرمين أثرت في بعض الحالات في إعداده الصور للنشر، وتمكن رؤية هذه العملية بشكل أكثر وضوحًا في صورة (*Romagnolo tricocefalo*)، أو رجل مستدير الرأس بشكل غير طبيعي من رومانيا، والذي ظهر في الطبعة الأولى من الرجل المجرم (الشكل 18)، وقد استغرق الأمر بعض الوقت لندرك أن هذا هو الزميل المصوَّر نفسه، مثل *Romagnolo trococefalo stupratore* (مغتصب، غير طبيعي الرأس، ومستدير، من رومانيا) في الطبعات الثانية واللاحقة (الشكل 19). وبين الطبعتين: الأولى والثانية، خضعت الصورة إلى تبشيع كبير، حيث صار رأس الرجل أصلع، باستثناء حلقة شعر خارجية ناعمة، امتدت أذناه إلى الخارج لتشبه مقابض الإبريق، أصيب بقصبة صغيرة على ذقنه وشفته العليا، وتجاعيد أعمق، وعينين متحركتين. عمومًا: يبلغ من العمر عشرين عامًا على الأقل. ولا تصور الصورة الأصلية المغتصب الوحشي في الطبعات اللاحقة، بل تصور رجلًا غير ضار.

وبالمثل، أثناء إجراء بحث في متحف لومبروزو، اكتشف المؤرخ (جورجيو كولومبو) نسخًا سابقة أقل فظاعة لبعض شخصيات لومبروزو الوحشية الأخرى، ويشير كولومبو إلى أن "الانتقال من الصورة إلى الرسم، ومن الرسم إلى النقش"، هو: عملية تدرجية لتشويه وتشكيل وحش، ويدفع هذا الإجراء الصورة المتمردة؛ لتتوافق مع النموذج الأصلي للرجل الشرير، الذي يكون بطبيعته قبيحًا دائمًا"[51].

كما لاحظ (ماريو بورتيغلياتي باربوس)، الذي خلف كرسي لومبروزو في جامعة تورينو أيضًا، الانخفاض من التشابه، إلى الصورة النمطية المتضمَّنة، في إنتاج بعض

www.daralthaqafa.com

الرسوم التوضيحية السابقة، "هناك عنصر غير واعٍ في الرسوم، (حتى) في صفحات (ألبوم الجانحين Album of Delinquents رقم 1 و2) (من مصادر لومبروزو)، والذي يعود تاريخه إلى عام 1871، ويتضمن رسومات متنوعة، ربما بخط (فريجريو)"[52]، الطبيب الذي تبرع بالصور في مجموعة لومبروزو[53]. وهكذا، فإن صور (فريجريو) الأصلية، والتي اشتق منها لومبروزو لاحقًا رسومه، تشكلت من خلال الافتراضات النظرية المسبقة. لقد كانت الحدود بين العلم وبين الفن مختلطة منذ البداية.

ومن جهة القصة في كتاب: الرجل المجرم، استخدم لومبروزو القصة بطريقتين لتكملة بياناته الكمية، فأولًا: فحص لومبروزو المصنوعات المكتوبة، ولغة السجناء؛ لتعميق فهمه للعقل الإجرامي.

وثانيًا: استخدم هو نفسه الأدلة القصصية والأدبية؛ لاستكمال قياساته وإحصاءاته في تكوين صورته للمجرم بالميلاد.

وبالنسبة إلى القارئ المعاصر، تبدو مقاطع كتاب: الرجل المجرم، التي تستشهد بدوستويفسكي، أو الأمثال الإيطالية، كدعم للادعاءات الإجرامية، غير ملائمة، ومع ذلك، فإن إضافة لومبروزو القصص إلى الإحصاءات، قد جعلت نظريته في متناول جمهور تجاوز المجتمعات الأكاديمية والطبية،

حيث تضمنت الطبعة الأولى من كتاب: الرجل المجرم فصولًا عن أدب المجرمين، ومصطلحاتهم، فبدا مسرورًا بشعر السجناء، الذي عَدَّهُ "مفاجأة من مثل هذه الأقلام"، وبمقارنة شاعر سجن واحد بكاتب عصر النهضة (بترارك Petrarch)، وخلص إلى أن المجرمين ينجذبون إلى الشعر؛ لأنه أفسح مجالًا للتعبير عن المشاعر القوية، كما وجد لومبروزو المصطلحات اللغوية للمجرمين رائعة بالقدر نفسه، وتشير بوضوح أكبر إلى طبيعتهم الارتدادية، وتفاجأ بتماثل مصطلحات المجرمين في جميع أنحاء إيطاليا، ولاحظ أنها خليط بين المصطلحات القديمة، وبين الطفولية، واختتم لومبروزو في

www.daralthaqafa.com

الطبعة الأولى، من كتاب: الرجل المجرم، أن المجرمين "يتحدثون مثل الهمجيين؛ لأنهم همجيون، ويعيشون وسط الازدهار الحقيقي للحضارة الأوروبية".

وفي الطبعة الثانية من كتاب: الرجل المجرم، أضاف لومبروزو فصلًا عن ما أسماه لاحقًا: علم الخطوط، أو: تحديد الشخصية الإجرامية؛ من خلال تحليل خط اليد، وهذا مع تسليمه بأن "فكرة أن خط يد الرجل، يمكن أن يقدم أدلة على حالته النفسية، قد تبدو غير مجدية، وحتى غريبة"، إلا أنه ادعى أنه اكتشف اختلافات كبيرة بين خطوط القتلة، وبين خطوط اللصوص.

وفي الطبعة الرابعة، وسّع تجاربه الخطية؛ باستخدام التنويم المغناطيسي على شاب يفترض أنه طبيعي، وعندما قيل له: إنه مجرم، بدأ في الكتابة بخط غير منظم، وهمجي.

لقد جمع لومبروز في كتابه: (*Palimsesti del carcere*) أكثر من ثلاثين صفحة إضافية من كتابات السجناء، بما في ذلك: الكتابة على جدران الزنازين، والرسم على أباريق المياه الخاصة بالسجناء، والتعليقات المكتوبة على هوامش كتب مكتبة السجن، والتطريز على زي السجن، والوشم. وأوضح لومبروزو في مقدمته أن هذه المجموعة الهائلة من القطع الأثرية للسجن، تتعارض مع النظرة العامة، القائلة: إن السجن "نظام أخرس، وعاجز، يحرم الكلام أو الكتابة"[54]، وبدلًا من ذلك، شكلت هذه الأعمال اليدوية "مجموعة حقيقية من السير الذاتية"، التي تكشف عن "علامات مهمة لخلق حقيقي ونفسي لهذا العرق الجديد والبائس للغاية"، وهو: عرق المجرمين بالميلاد[55].

كما قارن لومبروزو نفسه بعالم الخطوط القديمة، أو مترجم النصوص القديمة، ووصف بشكل متواضع (باليمسيستي)، بأنها مجموعة من البيانات، مختصة لعيون العلماء فقط. ومع ذلك، فإن تلميحاته المحيرة إلى أن الكتابة في السجن، كانت فاحشة، يبدو أنها متعمدة لجذب جمهور أوسع من القراء الذين هم مثل لومبروزو نفسه، سيكونون مفتونين بعالم الإجرام.

www.daralthaqafa.com

وفي كتابه: الرجل المجرم، استخدم لومبروزو نفسه القصة؛ لدعم حججه العلمية، حيث أخرجت المقابلات النفسية التي أجراها مع السجناء، قصصًا فردية وعائلية، بدا أنها تثبت مبادئ الأنثروبولوجيا الجنائية، وقد صاغ لومبروزو دراسات الحالة الخاصة به عن مجرمين مشهورين، مثل: (سالفاتور ميسديا)، واللص (جوزيبي موسولينو)، في حكايات آسرة عن الارتداد البشع، والوراثة السيئة. ثم في بعض الأحيان، أدخل لومبروزو نفسه، أو غيره من علماء الأنثروبولوجيا الجنائية، في دراما قضايا المحاكم، مصورًا العلماء على أنهم منقذون، يستطيعون وحدهم تحديد المجرم المجنون.

وعلى مستوى آخر من القصة، استخدم لومبروزو الحكايات التاريخية، والمقاطع الأدبية، والأمثال؛ كدليل علمي، وعندئذ لم يتردد في الاستشهاد، على سبيل المثال، بأذني الإمبراطور الروماني نيرون، في الطبعة الأولى، من كتاب: الرجل المجرم، كدليل على أن هذا الشذوذ يميز المجرمين بالميلاد.

وبالمثل، أكد لومبروزو في الطبعة الرابعة، أن شكل (راسكولينكوف) في كتاب: (الجريمة و العقاب)، فيه علامات الارتداد، الموجودة في العديد من المجرمين العرضيين.

وربما كان الأمر الأكثر إثارة لدهشة القارئ الحديث هو: استعداد لومبروزو في الطبعة الخامسة للجوء إلى الأمثال؛ لتأكيد استنتاجاته بأن المجرمين يظهر عليهم بعض التشوهات الجسدية؛ مثل: اللحى المتناثرة، والعيون الخرزية، والأصوات الرجولية عند النساء. وعلى الرغم من أن هذا اللجوء إلى الرأي العام قد يبدو غير علمي، فقد انتشرت فِكَرُ لومبروزو بسرعة؛ لأنها بنيت على ما أطلق عليه أحد المختصين في القصة: "البناء المسبق"، أو: القوالب السائدة[56]. وبدلًا من الانتقاص من تأثير كتاب: الرجل المجرم، ضاعفت أدواته السردية العديدة من جاذبيته، وإمكانية الوصول إلى الجمهور خارج المجتمعات الأكاديمية والقانونية.

www.daralthaqafa.com

كما على مستوى أكثر عمومية، يقدم كتاب: الرجل المجرم سردًا رئيسًا كاملًا لتحوُّل القانون والجريمة، من عالم النبات والحيوان إلى المجتمع الهمجي، وأخيرًا: إلى أوروبا المتحضرة، حيث تجمع هذه القصة الكبرى بين الأنواع المتعددة وبين المجزأة من الأدلة التي قدمها لومبروزو، بما في ذلك: الإحصائيات، والمقابلات، والأمثلة التاريخية، والأمثال. في حين أن رواية لومبروزو لم تختلف كثيرًا عن الداروينية الاجتماعية القياسية في عصره، والتي وصفت انتصار الحضارة البيضاء على الماضي البربري، إلا أنها أضافت بُعدًا فريدًا إلى هذه القصة؛ من خلال النقاش حول أن جذور القانون الحديث توضع في الجريمة، وفي العنف المعتاد للمجتمعات الماضية، وليس في الدين، أو المبادئ الفلسفية السامية[57].

ومن ثم، في الطبعة الأخيرة من كتاب: الرجل المجرم، أضاف لومبروزو تحولًا مفاجئًا إلى روايته الرئيسة، تلك التي رسمت حتى الآن بانوراما واسعة للمجرمين، وتهديداتهم المتعددة للمجتمع، ففي النهاية: يشير إلى أن الجريمة مفيدة، وقد شكلت القوة المحركة للتاريخ.

متحف لومبروزو

افتتح لومبروزو عام 1884 متحفًا بشكل غير رسمي، في جامعة تورينو؛ لتوفير مأوى لمجموعته المتزايدة باستمرار، من الأعمال اليدوية المرئية والمكتوبة[58]، وقد قدم معروضات عن مجموعة واسعة من المنحرفين؛ كمرضى الصرع، الشاذين، المجانين، البغايا، وأطفال الشوارع، وكذلك: مخالفي القانون، لقد كانت مجموعة لا تصدق من المعروضات الغريبة، والعديد منها أسهم بها معجبو لومبروزو، من مناطق أخرى في إيطاليا والبلدان الأجنبية، مما أدى إلى ازدحام غرف المتحف الست، من الأرض إلى السقف: بأقنعة الموت الشمعية، والأدمغة المحنطة، والرسومات المهووسة من المجرمين المجانين، ومسحات من الوشوم على الجلد، والأسلحة، والقيود والأغلال الحديدية، ونماذج من النباتات آكلة اللحوم، ومومياوات، وأكثر من ثلاثمئة جمجمة

www.daralthaqafa.com

حبشية، وصينية، وهندية، وباتاغونية، وكذلك: إيطالية، ونموذج ضخم لسجن الولاية الشرقية في فيلادلفيا، يوضح نظام الحبس الانفرادي، وطباعة حجرية لآكل لحوم البشر البروسي، وجثث مسروقة من مقابر سردينية القديمة، وجثث الأطفال المقتولين، وأباريق الماء الخاصة بالسجناء منقوشة بالتخيلات الجنسية.

وبعد وفاة لومبروزو عام 1909، لم يقتصر الأمر على مكتبه بالكامل، ولكن وجهه أيضًا، نائمًا إلى الأبد في وعاء من المواد الحافظة[59]. ومع ذلك، كما يحذر (بورتيجلياتي باربوس)، لا ينبغي للمرء أن يقفز إلى الاستنتاج غير التاريخي؛ بأن المجموعة هي: مجرد "مجموعة تحف" غير مفهومة؛ لأنها في الواقع، توفر "المقدمات، والتقنيات، والأساليب، والقيم، والنتائج"، وإن كان ذلك مع ترك تحديد المعاني لـ" التصور الذاتي للزائر"[60].

لقد كان افتتاح متحف لومبروزو، مثل نشر الأطلس، بمثابة انتصار للوضعية، مع تركيزها على البحث التجريبي والاستقراء العلمي، وبشكل أكثر تحديدًا، شهد إنشاء المتحف انتصارًا للأنثروبولوجيا الجنائية؛ بافتراضه أن المعرفة متأصلة بطريقة ما في الأشياء المتعلقة بالجريمة. ووفقًا للفرضية غير المعلنة للمتحف، يمكن لعلماء الجريمة ومسؤولي الشرطة استخلاص دروس في منع الجريمة، من دراسة هذه الأعمال التي صنعها الإنسان. وتشرح المؤرخة سوزان ريجنر، لزوار مطلع القرن إلى هذا المتحف ومقلديه في مدن أوروبية أخرى: "أحاطت هالة من المعرفة بمجموعة من الأعمال اليدوية للمنحرفين، مما أدى إلى كونها ميتافيزيقة الشر: يمكن فهم جوهر الشيء بمجرد النظر إليه. العناصر المعروضة كانت لذلك مهمة، لأن المعرفة ستظهر فيها"[61]. لقد قدم لومبروزو النقطة المعرفية نفسها في مقدمة كتابه: (*Palimsesti*)، حيث ادعى أنه لا يريد التأثير في تفسيرات القراء واستنتاجاتهم "التي في رأيي: يجب أن تظهر تلقائيًّا، وتتحدث بنفسها إلى أعين القارئ المحايد.."[62]. إنه في الواقع:

www.daralthaqafa.com

استمر في إخبار القراء بكيفية تفسير كل عنصر في الكتاب؛ لمجرد تأكيد إيمانه بالمعاني الخفية، ولكن القابلة للاستخراج لهذه الأعمال.

وبخلاف حفظ مجموعة لومبروزو، ما أهداف المتحف الغريب؟

إلى حدٍّ كبيرٍ، كانت أهدافه مطابقة لتلك الموجودة في الرسوم التوضيحية في كتاب: الرجل المجرم: الحفظ، والتعليم، والإقناع، والمجد، وقد ساد الهدف التعليمي، حيث رسميًّا على الأقل، كان لومبروزو يأمل أن يقوم المتحف بتعزيز الشرطة العلمية، وتثقيف علماء الجريمة في المستقبل، وإقناع كلٍّ من عامة الناس والمختصين بفضائل الأنثروبولوجيا الجنائية. وقد كان الهدف الأقل وضوحًا هو: الهدف، الذي يسميه ريجينر: "التكريم"؛ أي: إظهار وإعلان انتصار العلم على الجريمة، ومن جهة لومبروزو: انتصار الأنثروبولوجيا الجنائية على العقائد المنافسة[63]. وفضلًا عن ذلك، كان للمتحف بعد سياسي؛ إذ تأسس بعد مدة وجيزة من استقلال إيطاليا، وأظهر الأمل في أن يؤدي العلم إلى السيطرة على الانحطاط، وخلق دولة صحية وتقدمية، وهنا: يلاحظ (ريجينر) أن "وظيفة المتحف" كانت في هذا السياق، للتعبير بشكل رمزي عن الحدود، والسمات، والخطط الحالمة للمشروع المعاصر "صنع إيطاليا"[64]. وتوسعًا في هذا الموضوع، يوضح مؤرخ آخر في المتحف، كولومبو، أنه: "بالنسبة إلى مجتمع كان يتجه إلى البحث عن هويته الخاصة، وللحماية من شبح الماضي، ولضمان التقدم، فقد قدمت "الوضعية" احتمالية مثيرة لالتقاط الواقع؛ من خلال محيط العلم، الحقائق القابلة للقياس، والاستدلالات من القوانين الدقيقة، فهو صالح للإنسان كما هو الحال بالنسبة إلى الطبيعة، وخاصة للمجتمع"[65]. وهكذا كان المتحف يعبر عن الأمل في أن يسترشد مستقبل إيطاليا بأفضل ما يمكن أن يقدمه العلم المعاصر[66].

هذا، ويستمر متحف لومبروزو والرسوم التوضيحية في الكتب، في خدمة أحد أغراضهم الأصلية: تقديم سجل فريد لسجناء القرن التاسع عشر، وثقافاتهم الخاصة، فمن صفحات الرجل المجرم، والأعمال الأخرى المستمدة من المتحف، يتعلم المرء من

www.daralthaqafa.com

آمال ومخاوف النزلاء، ومواقفهم تجاه جرائمهم، وتجاه عمليات الإعدام الوشيكة أحيانًا، وأسرار حياتهم في شبكات الجريمة المنظمة؛ مثل: شبكة (Camorra)، ووجهات نظرهم في الشرطة، والسجانين، والدين، والجنس، ومعتقداتهم حول قدرات الجسم الموشوم، وروح الدعابة لديهم.

وقبل قرن من أن يصير الفن الغريب المزعوم رائجًا، احتفظ لومبروزو برسومات سير السجناء الذاتية لمسرح الجريمة، والمهن الإجرامية، وفرق الإعدام، والانتحار: ("أنا عار [؛] قدري هو أن أموت مخنوقًا في السجن"، يشير إلى الكلام المكتوب الموجود أسفل رسم لسجين، يتدلى من حبل مربوط إلى نافذة زنزانته [الشكل 21])، في مدة برزت بالعفة الجنسية، لقد نشر لومبروزو أوشامًا للقضيب والتخيلات الجنسية، مما ساعد في تأسيس مجال علم الجنس، وكان يجمع أوراق اللعب، والنقوش على القرع المجفف، والمنحوتات المصنوعة من فتات الخبز، من الخارجين عن القانون، الذين لا يقدرهم أي شخص آخر، كما احتفظ بالصور الفوتوغرافية، التي قام فيها رجال عنيفون بتصوير مشاهد عنف وشيكة، أو للذكرى (الشكل 9). وتقدم صور كتاب: الرجل المجرم وجهات نظر قيمة، ليس لثقافة المجرمين فقط، ولكن حول حياتهم العاطفية أيضًا، "علامات ثمينة" كما أطلق عليها لومبروزو، للحالتين: الأخلاقية والنفسية لهذه الفئة التعسة، التي تعيش بجانبنا، بدون أن نعرف حقًّا شخصياتهم الحقيقية"[67].

تأثير لومبروزو

منذ وفاته عام 1909، ظل لومبروزو محوريًّا في مناقشات علم الإجرام، على الرغم من أن فِكَرَهُ لم تفهم دائمًا، وانتقدها النقاد غالبًا، ففكرة المجرم بالميلاد كانت مثيرة للجدل منذ نشأتها، فهي بين مؤيد، وبين معارض من الأجيال المتعاقبة من علماء الجريمة. ومع نشر الطبعة الأولى من كتاب لومبروزو، أشعلت صورة لومبروزو للجاني الارتدادي – بجمجمته الصغيرة، وجبهته المنخفضة، وفكه البارز، وأذنيه

www.daralthaqafa.com

البارزتين – خيال ليس الفقهاء والأطباء فقط، ولكن الكتاب، والصحفيين، والمغنين في كل مكان في أوروبا أيضًا. ولقد صارت الأنثروبولوجيا الجنائية مركزية في بناء نظام جديد لعلم الجريمة؛ من خلال تقديم تفسير علمي وحديث للجريمة على ما يبدو، أكثر من الفلسفة القانونية التقليدية، القائمة على حرية الإرادة. وعام 1885، بعد ظهور ثلاث طبعات من كتاب: الرجل المجرم، استضاف لومبروزو المؤتمر الدولي الأول للأنثروبولوجيا الجنائية في العاصمة روما، حيث صارت نظريته عن المجرم بالميلاد عمليًّا لا جدال فيها. كما لقد جلبت السمعة الدولية للومبروزو وأتباعه بروزًا داخل إيطاليا؛ إذ أطلق على علم الجريمة الوضعي اسم: المدرسة الإيطالية.

ثم بحلول المؤتمر الدولي الثاني للأنثروبولوجيا الجنائية في باريس عام 1889، واجه لومبروزو الهجوم، خاصة من الوفد الفرنسي، وقد كان لومبروزو مدركًا تمامًا الانتقادات العديدة الموجهة إلى نظريته، ويتضح ذلك من مقدمات كل طبعة من كتاب: الرجل المجرم، التي تشكل ردودًا مطولة ودفاعية بشكل متزايد لخصومه. حيث اقترح الفرنسيون نظريتهم البديلة (البيئة الاجتماعية)، التي أكدت دور العوامل الاجتماعية في بدء العمليات الجسدية والنفسية للانحطاط. ثم في الأعوام التالية، رفض الألمان المؤيدون لما يسمى: المدرسة الحديثة للقانون الجنائي، رفضوا أهمية التشوهات الجسدية لصالح العلامات النفسية لعلم الأمراض في تشخيص الإجرام. ولم ينكر لا الفرنسيون، ولا الألمان، دور الوراثة في الجريمة، غير أن رفضهم المحدد لنظرية المجرم بالميلاد، بتأكيدها الارتداد، قد أضر بمكانة لومبروزو، فكان نشر (تشارلز جورنج) كتاب: "المدان الإنجليزي" عام 1913، بمثابة ضربة أخرى لسمعة الأنثروبولوجيا الجنائية الإيطالية[68]، فباستخدام تقنيات إحصائية أكثر تقدمًا من لومبروزو، ادعى (جورنج) أنه قد دمر نظرية المجرم بالميلاد؛ من خلال إثبات أن التشوهات الجسدية، لم تكن منتشرة في المجرمين أكثر من عامة السكان. غير أنه على الرغم من احتفال أعداء لومبروزو، الذين اعتقدوا أن نظرية المجرم بالميلاد قد

www.daralthaqafa.com

دُفنت، لاحظت (جينا لومبروزو–فيريرو) بشكل مدرك، أن "جورنج أكثر لومبروزية من لومبروزو"؛ لأن استنتاجه – أن الجناة يعانون من نقص عقلي، ويرثون ميلهم إلى الجريمة –، هو: ترديد لفِكَرِ والدها[69]، وبينما بالغت (جينا لومبروزو فيريرو) في التأكيد في أوجه التشابه بين لومبروزو، وبين جورنج، كانت محقة في الإشارة إلى أن سلالة الحتمية البيولوجية والنفسية في علم الإجرام الأوروبي، تدين بدين كبير لوالدها، فتأكيد الوراثة هذا؛ بِعَدِّها الأكثر مسؤولية عن إدامة الرذيلة والجريمة والمرض، قد ازداد قوة فقط عندما بلغت حركة تحسين النسل ذروتها، في فترة ما بين الحربين.

فليس من المستغرب إذن: أن يظل الولاء للومبروزو أقوى في إيطاليا، حيث استمرت عدة أجيال جديدة من علماء الجريمة في تطبيق وتحديث نظريته.

هذا، وقد ميّز اتجاهان رئيسان التحولات داخل معسكر الوضعية، بعد وفاة لومبروزو، فأولًا: أكد أتباعه بشكل متزايد السمات النفسية، بدلًا من التشوهات الجسدية؛ بِعَدِّها السمة المميزة للجريمة الفطرية.

وثانيًا: احتفظ آخرون بالتركيز على التشوهات الجسدية، لكنهم قللوا من أهمية التشوهات القحفية والهيكلية؛ لصالح دراسات الهرمونات، وأنواع الجسم.

ولقد دخل ورثة فِكَرِ لومبروزو إلى مناصب السلطة، داخل المجلس التشريعي، ونظام العدالة الجنائية، مما أكد شعبية علم الإجرام الوضعي، طوال الفترة الفاشية، كما اندهش عالم الاجتماع الأمريكي إيليو مونانتشيزي، بعد زيارة إلى إيطاليا عام 1936، من "الولاء الشديد والتوقير، اللذين أبداهما طلاب الجريمة في إيطاليا تجاه لومبروزو"[70].

ثم بالنسبة إلى الجزء الأكبر، كان أن رفض علماء الجريمة في الولايات المتحدة، الحتمية البيولوجية، عشرينات وثلاثينات القرن الماضي، واعتمدوا تفسيرات اجتماعية للجريمة، فصارت مدرسة شيكاغو، بتركيزها على التأثيرات التكوينية للأسرة والجوار، تهيمن على النظريات الأكاديمية للجريمة، ومع ذلك: لم تختف المنظورات البيولوجية،

www.daralthaqafa.com

لا سيما عندما كان الجناة من النساء، ففي حين أن القليل من علماء الجريمة الأمريكيين، قد اتبعوا خطى لومبروزو في تكريس اهتمام جدي لجرائم النساء، فإن أولئك الذين رددوا استنتاجاته كثرٌ، وفي كتاب: خمسمئة امرأة جانحة، نظر عالما الجريمة البارزان، في جامعة هارفارد: (شيلدون) و(إليانور غلوك)، إلى النشاط الجنسي خارج نطاق الزواج بين النساء، على أنه علامة على الدونية البيولوجية، والوراثة السيئة، وهي: جزء من متلازمة، يشمل ضعف العقل، أو ضعف الذكاء[71]. وفضلًا عن ذلك، عام 1939، نشر عالم تحسين النسل الأمريكي وعالم الأنثروبولوجيا (إيرنيست هوتون) كتابين، حاولا تحديث الأنثروبولوجيا الجنائية للومبروزو[72].

وأما اليوم، فيفكر علماء الجريمة مرة أخرى في احتمال أن تكون الجريمة متجذرة (على الأقل جزئيًّا، وفي بعض الأحيان) في العوامل البيولوجية، ويمثل هذا التحول تغييرًا كبيرًا في الولايات المتحدة، حيث سيطرت نظريات علم الاجتماع في القرن العشرين على تفسيرات إجرام الذكور، وكان التغيير أقل جذرية في إيطاليا، حيث شكّل علم الإجرام لعقود من الزمن جزءًا من المنطقة المهنية لكليات الطب، حيث ظل تأثير لومبروزو أقوى على أي حال[73]. وكان التغيير أيضًا أقل وضوحًا، من حيث تفسيرات جريمة الإناث، التي استمرت حتى السبعينات في تفسيرها؛ من خلال المبادئ البيولوجية (على وجه التحديد: اللومبروزية)[74]، ولكن على الرغم من أن النظريات البيولوجية لم تختف تمامًا في بعض البلدان، أو في علم الجريمة الأنثوي، فقد تم طمسها في معظمها، حتى ظهورها مؤخرًا.

وبطبيعة الحال، فإن التجديد الحالي للتفسيرات البيولوجية، لا يمثل عودة بسيطة إلى مواقف لومبروزو، فهناك على الأقل ثلاثة اختلافات أساسية، بين النظريات البيولوجية للجريمة اليوم، وفي الماضي،

www.daralthaqafa.com

يكمن أحدها في حقيقة أنه بينما تحدث علماء الأنثروبولوجيا الجنائية من منظور ثنائية الطبيعة والتنشئة غالبًا، يتحدث المنظرون اليوم عن تفاعلات البيئة الجينية، معتقدين أن الوراثة نادرًا ما تعمل بشكل مستقل عن السياق،

فيما يتعلق الاختلاف الرئيس الثاني بالحتمية، ففي حين ادعى لومبروزو أن المجرمين بالميلاد ملزمون بيولوجيًّا بارتكاب جريمة، من المرجح: أن يتحدث علماء الجريمة اليوم عما يسمى: الاحتمالات، وعوامل الخطر، والميول المعادية للمجتمع، (ومع ذلك، لكي نكون منصفين، يجب على المرء أن يدرك أن حتمية لومبروزو الصارمة، تنطبق على المجرمين بالميلاد فقط، وبالنسبة إلى أنواع المجرمين الآخرين، فقد أدرك وجود تفاعل احتمالي بين العوامل الاجتماعية، وبين البيولوجية).

كما يكمن الاختلاف الثالث البارز، في نوع العوامل السببية، التي درسها علماء الأحياء في الماضي، واليوم، ففي حين ركز لومبروزو على الارتداد، والانحطاط، والصرع، والجنون الأخلاقي، يدرس العلماء اليوم عوامل؛ مثل: تحولات سمات الشخصية المعادية للمجتمع، وعلم الوراثة السلوكية، والاختلالات الهرمونية، والعجز الإدراكي العصبي.

وإنه على الرغم من هذه الاختلافات الجوهرية، يوجد عدد من أوجه التشابه المهمة أيضًا، بين فِكَرِ علماء الأنثروبولوجيا الجنائية، وبين علماء الإجرام البيولوجي الحاليين، وأكثر ما يلفت الانتباه هو أولًا: الطريقة التي ميز فيها أعضاء المجموعتين، بين دائرة داخلية صغيرة من الجناة الجادين للغاية، والمعتادين، وبين حلقة خارجية لعدد أكبر من الجناة العاديين. وقد تحدث لومبروزو عن المجرمين بالميلاد، وميزهم عن المجرمين العرضيين الأقل خطورة، والمجرمين بالصدفة، والمجرمين بالعاطفة، وما إلى ذلك، وتعود هذه الفروق الأساسية إلى الظهور في الفروق الحالية، بين الجناة المستمرين في مسار الحياة، وبين المجرمين المحدودين في سن المراهقة[75]، فلا

www.daralthaqafa.com

يُشتق العمل الجديد من تعاليم لومبروزو، ولكنه في هذا الصدد يصل إلى استنتاجات مماثلة.

ثانيًا: تنبأ لومبروزو بواحد من التيارات الرئيسة في علم الإجرام البيولوجي اليوم، وهو: علم النفس التَّحَوُّلي، وقد تأثر لومبروزو بعمق بالداروينية، وأدرك العديد من التأثيرات التَّحَوُّلية في السلوك الإجرامي، والأكثر وضوحًا في نظريته عن المجرم؛ بِعَدِّها ارتدادًا، أو رجوعًا إلى مرحلة مُتَحَوِّلة سابقة، وفي إسناد الجريمة الفطرية على كائنات ضعيفة التَّحَوُّل أيضًا؛ مثل: الهمجيين، والأطفال، والحيوانات، وحتى النباتات. كما يجادل علماء النفس التطوريون اليوم في أن سلوكياتنا الاجتماعية، بما في ذلك: ربما العدوانية الجنسية الذكرية، ومعدلات الجريمة المنخفضة بشكل عام لدى النساء، يمكن تفسيرها على أنها منتجات ثانوية للتكيف والاختيار الجنسي، على مدى مُدَدٍ طويلةٍ من الزمن[76]. غير أن عملهم، مثل عمل لومبروزو، يستخدم المفاهيم الداروينية أيضًا كنقطة انطلاق.

ثالثًا: يكمن التشابه الثالث بين التفسيرات البيولوجية السابقة، وبين الحالية للجريمة، في توقع لومبروزو لتيار رئيس آخر في نظريات اليوم، وهو: علم الوراثة السلوكية. وفي حين أن لومبروزو لم يفكر من حيث الجينات، التي تم تحديدها في وقت وفاته، إلا أنه كان يعتقد أن الميول الوراثية، التي تنتقل عبر الأجيال، قد أثرت في السلوك الإجرامي، وهذا ليس بعيدًا عما تحمله النظريات الجينية الحالية للجريمة، عندما تتحدث عن ميول وراثية، أو ميول إلى سلوكيات مثل: الاندفاع أو الإحساس، قد تؤدي إلى الجريمة، خاصة إذا كان الفرد يولد في بيئة لا تغرس ضبط النفس الذاتي. فعلى المستوى الأساسي، فإن تأكيد الأنثروبولوجيا الجنائية للوراثة، قد دفع التفسيرات الجينية الحالية، نحو السلوك المخالف للقانون.

وقلة من علماء الجريمة الأمريكيين اليوم؛ بغض النظر عن مدى إخلاصهم للنظريات البيولوجية، يقتفون جذورهم إلى لومبروزو، كما لا يشير الظهور الحالي في النظريات

www.daralthaqafa.com

البيولوجية إلى عودة إلى الأنثروبولوجيا الجنائية، ومع ذلك: فإن الظهور الجديد، يعكس العديد من الفِكَرِ الرئيسة، التي طرحها لومبروزو. فمن نواحٍ رئيسةٍ، أثبت كتاب: الرجل المجرم أنه كان رائدًا للنظريات الحالية، عن البيولوجية، وعن الجريمة.

دليل لهذه الترجمة

يهدف هذا الكتاب إلى إتاحة المقتطفات الرئيسة للقراء الناطقين باللغة الإنجليزية، من جميع الطبعات الخمس، من كتاب: الرجل المجرم، للومبروزو. فلقد قمنا بتضمين هوامش لومبروزو الأصلية، والجداول، الرسوم التوضيحية؛ لإظهار كيف استخدم لومبروزو أنواعًا مختلفة من البيانات؛ لدعم نظريته في الأنثروبولوجيا الجنائية، وفضلًا عن ذلك، نقدم هذه المقدمة العامة، وتقديمًا لكل طبعة، وهوامش، وببليوغرافية، وملاحق تحتوي على معلومات حول لومبروزو، وسياقه التاريخي.

ونحن لا نهدف إلى تأييد نظرية لومبروزو، أو مهاجمتها، بل إلى جعل أعماله متاحة لعلماء الجريمة، والمؤرخين.

وتتحدى القراءة المتأنية لكتاب: الرجل المجرم، التحليلات الدقيقة لفِكَرِ لومبروزو، المتوافرة في معظم الكتب المدرسية، المتعلقة بعلم الجريمة، ومجموعات القراءات الإجرامية[77].

وفي حين أن اسم لومبروزو معروف جيدًا لعلماء الجريمة والمؤرخين، فإن تحولات فِكَرِهِ وتعقيدها، وحتى التناقضات داخلها، محجوبة في ملخص الكتاب المدرسي القياسي، الذي يركز حصريًّا على المجرم بالميلاد. فقد تجاهل العلماء الذين لا يقرؤون اللغة الإيطالية، العلاقة بين فِكَرِ لومبروزو، وبين سيرة حياته، وبين التاريخ الإيطالي، لكن هذا الوضع يتغير الآن، فمع ظهور كتب جديدة عن لومبروزو باللغة الإنجليزية، سيتمكن العلماء من الحكم عليها في ضوء نصوصها الأصلية، وكتابنا هذا نقدمه باللغة الإنجليزية.

www.daralthaqafa.com

فلسفة الترجمة

تختصر هذه الترجمة الطبعات الخمس الأصلية لكتاب: الرجل المجرم، لكنها لا تشوه محتواها، بل إنها تكشف عن اتجاه فِكْرِ لومبروزو، الذي نما على مدار عشرين عامًا. وتحتوي هذه النسخة الإنجليزية جميع المواضيع الرئيسة التي تناولها لومبروزو؛ إذ قسمت أقسامًا تتوافق مع الطبعات الإيطالية الخمس الأصلية، والطبعة الإنجليزية غيرها.

فيتضمن القسم الأول من الكتاب كل فصل من فصول الطبعة الأولى لكتاب: الرجل المجرم؛ باستثاء تلك المتعلقة بأخلاق المجرم، وأسباب الجريمة، ومنع الجريمة. وتأجلت هذه الفصول الثلاثة حتى قسمنا في الطبعة الثانية، حيث يحلل لومبروزو هذه المواضيع بتفصيل أكبر،

ويتضمن القسم الثاني فصولًا عن الانتحار أيضًا، ومجرمي العاطفة، والكتابة الإجرامية،

فيما يتضمن القسم الخاص بالطبعة الثالثة مواضيع جديدة تمامًا: (الجريمة لدى الحيوانات والهمج، والجريمة بين الأطفال، والجنون الأخلاقي)،

بينما يظهر مجرم الصرع، ومجرم الجنون، والمجرم العرضي، في القسم الرابع، الخاص بالطبعة الرابعة،

ونظرًا إلى أن الطبعة الخامسة كانت بشكل أساسي عبارة عن خلاصة وافية للطبعات السابقة، فإن القسم الأخير من هذه الترجمة، يعود إلى المواضيع السابقة، ولكنه يوضح كيف عمل لومبروزو على توسيعها وتغييرها، فعلى سبيل المثال: نوضح كيف توسعت قواعد بيانات الفصول المتعلقة بالجمجمة الإجرامية، وملامح الوجه الإجرامية، بمرور الوقت، وكيف أن فصول الطبعة الخامسة حول مسببات الجريمة، ومنعها، والعقاب عليها، تقدم مواضيع فرعية جديدة.

www.daralthaqafa.com

وقد تمكنا من الاحتفاظ بمضمون وشكل النصوص الإيطالية الأصلية؛ لأن لومبروزو لم يحذف الفصول، ونادرًا ما ينقحها، فعندما حدد الأسباب الجديدة للجريمة وفئات المجرمين، أضاف فصولًا جديدة إلى الفصول السابقة، وهكذا بقي العديد من الفصول على حاله في الطبعات الخمس، حيث يظهر هذا النمط بوضوح في ملحقنا ذي الرقم1، وحيث نقدم ملخصًا مقارنًا لمحتويات جميع الطبعات الخمس الأصلية، وأما عند إضافة أقسام فرعية جديدة مهمة؛ (مثل: تلك الموجودة في الصور الفوتوغرافية، أو الكتابة اليدوية)، فنضعها في فصول منفصلة.

كما إننا في حالات قليلة، قمنا بتجزئة فصول طويلة جدًّا من الإصدار الأصلي (على سبيل المثال: موضوع مسببات الجريمة) إلى عدة أجزاء؛ من أجل الاتساق، وسهولة القراءة.

وضمن الفصول، نحذف العديد من الأمثلة التي لا تُعَدُّ، التي يقدمها لومبروزو لدعم كل جانب من جوانب نظريته، حيث اعتقد لومبروزو أن تراكم الأمثلة – سواءً أكانت إحصائية، أم إكلينيكية، أم تاريخية، أم فولكلورية – قد زاد من قوة حجته. وهذه الأمثلة متكررة جدًّا وطويلة، لدرجة أنه من غير العملي: تضمينها في إصدار مبسط، يهدف إلى جذب انتباه القارئ، ومع ذلك: فقد قمنا بتضمين أمثلة تمثيلية لكل نوع من البيانات، التي يستخدمها لومبروزو لتوضيح أسلوبه في النقاش. وعلى الرغم من أن اختصارنا قد أنتج نصًّا تمكن إدارته ومباشرته بشكل أكبر من النص الأصلي، فقد احتفظنا بالعديد من المقاطع أيضًا، التي يبدو فيها تحليل لومبروزو متناقضًا، كما قد أشرنا إلى التناقضات في الهوامش.

فقد كتب لومبروزو باللغة الإيطالية الرسمية والعلمية، مستخدمًا مصطلحات طبية وعلمية عفا عليها الزمن اليوم، فبالنسبة إلى إيطاليي القرن الحادي والعشرين هذا، تبدو لغة لومبروزو قديمة الطراز، وصعبة، وحتى غير مفهومة في بعض الأحيان، ويرجع ذلك إلى مرور الوقت من ناحية، ومن ناحية أخرى: إلى أسلوب لومبروزو

www.daralthaqafa.com

المتهور، والكتابة المتسرعة[78]، وأما بالنسبة إلى المتعلمين المعاصرين، فقد بدت لغة لومبروزو مناسبة للفهم، وأما بين غير العلماء، فربما زادت مصطلحاته الغامضة من مصداقيته، ولكن نظرًا إلى أن أحد أهدافنا كان جعل عمل لومبروزو متاحًا، فإننا قد قمنا بترجمة الكلمات الغامضة إلى مصطلحات مألوفة أكثر، وكذلك: حاولنا التلطيف من أسلوبه النثري، وجعله أكثر عامية قليلًا، في محاولة لأن نجعل نثره مفهومًا للقراء المعاصرين، مع الحفاظ على بعض شكلياته.

قراءة كتاب: الرجل المجرم

وضعنا تمهيدًا لكل طبعة من كتاب: الرجل المجرم، أربعة منها مقتطفات مطولة (يكرر تمهيد الطبعة الخامسة من الطبعات السابقة)، حيث استخدم لومبروزو هذه التمهيدات لوضع نظريته العامة، وتحديد المواضيع التي أضافها منذ الطبعة السابقة، والدفاع عن نفسه ضد المعارضين. وفي ترجمة هذه التمهيدات، حاولنا الحفاظ على أسلوب حوار لومبروزو مع منتقديه، الذي جمع بين التواضع الساخر، وبين القتال، وبين السخرية أحيانًا.

كما تظهر الجداول بشكل متكرر في النصوص الأصلية، وعادة ما تكون في شكل غير منظم، وغير قابل للقراءة عمليًّا، ما لم يُذكر خلاف ذلك، ووضعنا جميع الجداول من كل مقتطف، ولكن لجعلها أكثر قابلية للفهم، أعدنا ترتيب الصفوف والأعمدة أحيانًا، وأضفنا ملاحظات المحررين؛ لتحديد التناقضات الإحصائية داخل الجداول، وبين الجداول والنص، ثم فضلًا عن ذلك، ونظرًا إلى أن الرسوم التوضيحية كانت مركزية في مشروع لومبروزو، فإن هذا الكتاب يعيد ويفهرس ويقارن، فهو يعيد إنتاج أكثر من أربعين صورة، معظمها مأخوذ من الطبعات المختلفة لكتاب: الرجل المجرم، ولكن بعضها صنعناه أثناء العمل في متحف لومبروزو، كما إننا قد وضعنا ملاحظات المحررين للعديد منها.

www.daralthaqafa.com

كما يحتوي النص على مجموعتين من الهوامش، الأولى للومبروزو، والأخرى تشكل التعليقات التوضيحية التحريرية. وقد وضعنا جميع الملاحظات، التي تظهر في أجزاء كتاب: الرجل المجرم، التي نترجمها على هيئة هوامش. كما تشير استشهادات لومبروزو إلى إلمامه بمجموعة واسعة من المعرفة الدولية، وتوضح أن الباحثين في جميع أنحاء أوروبا يعملون في مواضيع مماثلة. ثم إننا لم نحاول ترجمة اقتباسات لومبروزو، أو تصحيح الأخطاء فيها، ويرجع ذلك إلى أن معظم الأعمال التي تشير إليها لم تترجم مطلقًا، ومن جانب آخر: إلى أن تركها بالطريقة التي كتبها بها، يمنح القراء إحساسًا واضحًا بقراراته وإجراءاته المتعلقة بالتوثيق، (وبالمثل، فإننا نعيد إنتاج الاستشهادات، التي يدرجها لومبروزو مباشرة في النص بدون ترجمة)، ومع ذلك، في الحالات القليلة التي استخدم فيها لومبروزو الهوامش لإبداء تعليقات موضوعية، قمنا بترجمتها.

هذا، وتتبع التعليقات التحريرية الثانية النص المترجم، ففي هذه الإدخالات، نقدم بيانات السيرة الذاتية، والمعلومات التاريخية، وتفسيرات المصطلحات، وتعليقات على المقاطع الصعبة في النص.

أخيرًا: يجب أن تُقال كلمة أخيرة حول استخدامنا المصطلحات، التي قد تبدو مزعجة للقراء، فمن أجل إعادة نشر الصفة المميزة للغة لومبروزو وقصده، احتفظنا بمصطلحاته الأصلية، بما في ذلك: الهمجيون والبدائيون؛ للدلالة على الشعوب غير البيضاء، والأفراد الطبيعين؛ للدلالة على غير المجرمين، والمجانين؛ للدلالة على المرضى عقليًا، والشاذين؛ للدلالة على اللوطيين من الرجال.

وفي حين ثبت أن هذه المصطلحات غير مناسبة للتحليل الأكاديمي الحالي، إلا أنها كانت مع ذلك نموذجية للخطاب العلمي في القرن التاسع عشر، وتوفر نظرة ثاقبة ثمينة في نظر لومبروزو للعالم.